

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات بالإسكندرية

دراسات

في النصوص النشأ أول النظم

دكتور
محمد محمود شمس

دكتوراه في العقيدة وفلسفة
من كلية أصول الدين جامعة الأزهر
وعضو الجمعية الفلسفية المصرية

جامعة الأزهر
الكلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات بالاسكندرية

دراسات

في البصائر النبوية والنشأ والبطون

دكتور
محمد محمود استحياس
دكتوراه في العقيدة والفلسفة
من كلية أصول الدين جامعة الأزهر
وعضو الجمعية الفلسفية المصرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الله فدا

إلى من وهدى فيها الفنون والهدى
والهدى في التي هي في ظروف
البحث العلمي إلى محراب السكينة
إلى زوجي أهدى هذا المؤلف العلمي
في الساحة الفوق التي ولديها تفرير أوفانا.

المؤلف

مقدمته

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء وأيام المرسلين
سيدنا محمد الذي أرسى قواعد حرية الفكر على أهدولها وأخرج الكلمة من
عقالها مدين ناوي بتحرير الفرد من ذل اليهودية لغير الله وأفصح المجال
للإنسانية العادفة العادفة المترعة العناية الموسومة بالحكمة

أما بعد

فقد شرفني كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالاسكندرية إذ عهدت
إليّ بإلقاء محاضرات في مادة التصوف ولقد أهاب من نفسي لهذا التكليف
بل هذا الشرف هو قسماً ذلك إنني وأمر من أولئك الشغوفين
بدراسة هذا اللون من التمدد وقد كتبت في بعض فترات التارخ العن
محاضرات في المحافل العلمية متحدثاً عن سلوك المتصوفة من عباداتهم
ورياضاتهم وأزواجهم وما إلى ذلك من الأحوال التي تعرض لهم
والظواهر أنه قد أن لهذه النجوم المشرقة أن يتكامل خلقها وأن
تتحد عناصرها متضمنة معالم التصوف الإسلامي كالفكر والمفهوم وتبل
المفوض في التفصيلات أجدر لزماً على أن أبين المنهج الذي سألتزمه
فوف الترم الترتيباً مستديراً بالحرية الكاملة من عرض أراد المؤيدين
والمعارضين عدم أم ألتع بنفس من أتوم هذا الصرح واتقاً على شاطئ
هذا البحر عدم السجامة الحقيقة طارلتها ولكن على مقربة من اليابس
لكي أكون في أمن من الغرق. ولست أجهز على إيراد انني قد خضعت
لجه هذا البحر وانما كتبت فيه وسرلاً لأنا في النعم ولأنا على الطح
أي أذنها لا تعدوا أن تكون محاولة لوضع إطار عماء للتصوف ووضعه
في الإطار فكري محمد المعالم فإن أضيف العصف من وراء تلك المحاولات
فتؤمنهم الله وهداه والرضى انني أضمنت الطريق ونهج السبل لهم بلوى
من الباطن لله والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير .

الاسكندرية في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨٦/١٠/١

بسم الله الرحمن الرحيم

البدع

يهيئنا في بداية بحثنا أن نقوم بتحديد هاتين اللفظتين (صوفي وصوفي) فإذا تمكنا من استناد هاتين الكلمتين إلى اشتقاق لغوي فيها ، ولا فليس بإمكاننا بد من اعتبار ذلك مجرد إطلاق يعبر عن معنى وصفي فقط أو على الأقل هو اصطلاح يرا د به قوم معينهم يتهجون سلوكا معيننا في أطراح الدنيا وراء ظهورهم وإقبال بكفة الهمة على الله تعالى .

والسؤال الذي يطرح نفسه . ما معنى كلمتي صوفي وصوفي ؟ الواقع انه قد كثر الكلام حول الاشتقاق اللغوي لكلمتي (صوفي) يطاول البعض ان ينسبهم إلى الصفاء أو إلى الصفاء ، وهي تلك البقعة التي اعد ها رسول الله صلى الله عليه وسلم لسكنى الفقراء من أهل المدينة حيث كان ينزلها من ليس له مكان يأوى إليه وقد وصفهم أبو نعيم بقوله . " هم قوم اخلاقهم الحق عن الركون إلى شيء من المعروض وصيهم من الأفتان بها عن الفروض وجعلهم للتجريد من

الفقراء لا يؤمنون الى اهل ولا مال ولا يملهمهم عن ذكر الله تجارة
ولا حال ، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولا يفرحون الا بما
أيدوا به من المعقبي ، كانت افراحهم بمعبودهم وملكهم ، وأحزانهم
على فوت الاغتنام من ارباحهم وأروادهم ، هم الرجال الذين
لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ولم يأملوا على ما فاتهم ولم
يفرحوا بما أتاهم . (١)

ولتشابه حال الصوفية مع هؤلاء ، رأى بعض الباحثين أن ينسبهم
اليهم ، وقال آخرون ان الكلمة منسوبة الى "الصف" لأنهم كانوا
يحاربون الى حضور الصف الاول في الصلاة ، وذهب المستشرقين
الى ان مراد الكلمة الى (سوفيا) اليونانية قائلين ان العرب حينما
فلسفوا عبادتهم حرفوا الكلمة وأطلقوها على رجال التعبد والفلسفة
الدينية وجعلوا اسم (التصوف) بدلا من (سوفيا) ومن ثم فسدت
السمية اليها "صوفي وصوفية" .

ومن قائل ان الكلمة منسوبة الى قيم في الجاهلية عرفوا بالتمسك
والانقطاع الى الله عند اليأس الحرام .

(١) الحلية لابن نعمان ٣٣٧ و ٣٣٨ ط المطبعة ج ١ .

فقد ذكر ابن الجوزى (ان قوما فى الجاهلية يقال لهم "صوف" انقطعوا الى الله عز وجل وقطعوا الكمبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية وينسبون الى "الموت بن مر" الذى سى "صوفه" لانه ما كان يعيش لاهه ولكنه غنذرت لثمن طاش لتعلق برأسه صوفه وتجمعه بهط الكمبة ففعلت قيل له صوفه ولولده من بعده (١)

وآخرون رأوا ان الكلمة منسوبة الى "الصفة" وقال بعضهم انها منسوبة الى الصوفاته وهونابت قليل القائده وذكر آخرون انه نسبة الى "الصوف" الذى اختص القوم بلبسه واتخذوا منه رداهم مخالفين بذلك الجاهير فيما يقبلون عليه من لباس فاخر الثياب .

(١) تلييس بلبس " لابن الجوزى " ص ٥٥ ط ١ الكائنات اسلامية .

مناقشة هذه الآراء

- ١ - فاما القول بأن الكلمة مشتقة من "الصفاء" فصحيح من ناحية المعنى وذلك لأن الصوفي يشتغلون بمطاوله تصفية النفس من كدورة المادة وعلايق البدن .
ومع صحة هذا المعنى الا انه لا يتشى مع ايسر قواعد اللغة لان النسبة الى الصفاء هي صفوى لاصوفى .
- ٢ - وكذلك للرأى القائل بأن "الصوفى" انما سى بذلك نسبة الى "الصفة" التى كان يأوى اليها بعض فقراء المهاجرين والانسار فصحيح انه يوجد تناسب بين الحياة التى كان يحياها اهل الصفة وبين حياة الصوفية من حيث الفقر والزهد والانقطاع والخلوة . . . غير ان ذلك لا يصح النسبة للصوفية اذ النسبة الى صفة (صفى) لاصوفى .
- ٣ - واما الرأى القائل بأن الصوفى من الصفة فيعيد كذلك من حيث اللغة اذ لو كان ذلك صحيحا لترتب عليه ان تكون النسبة الى الصفة هي صفى لاصوفى .

٤ - وشله الرأي القائل بأن الكلمة منسوبة الى الصف الاول من الصلاة فبعيد أيضا من ناحية اللغة ان لو كان كذلك لغدت النسبة اليها صقي .

٥ - وأما الرأي القائل بأن الكلمة منسوبة الى " سوفيا " اليونانية والذي تنزعه الكثرة الغالبة من المستشرقين فإليين أن العرب حرفوا هذه الكلمة عندما أرادوا ان يفلسفوا مبادئهم فجعلوا اسم (التصوف) مرادفا لكلمة " سوفيا " التي تعني الحكمة وهو تمتعت في النسبة لايؤيده النطق العلني ، وأنه لتجريح عرف به بعض المستشرقين في تعمد الطعن على الثقافة الاسلامية بنسبتها الى غيرها من الثقافات للتدليل على انها ليست أصلية في نشأتها بل هي مكتسبة من غيرها (١) .

٦ - وأما الرأي القائل انهم منتسبون الى قوم في الجاهلية يقال لهم صوفية فيدحضه ان الراوى هو " محمد بن ناصر " وهو احد الرأى الذين أولعوا بالابتكار والاختراع ونسج الافاصى

(١) شخصيات صوفية (طه عبد الباقي سرور) ص ٢٦ .

والذين نقلوا عن رأيه " كابن الجوزي " الزمخشري
والفهرزى بادي يلبوا من رجال التصوف ، وتأيد فرياق
من رجال الاستشراق لا يبد هذا الرأي قوة لأن لهؤلاء
الناس شغلا خاصا بالتحدث عن ربانهم عرفوا الله وعرفوا
الحق في المصور الجاهلية قبل البعث المحدثه ، والغرض من
هذا التوضيح ما غر ولوصح قولهم عن وجود من نسى بهذا
الاسم في العصر الجاهلي . فرجال التعبد الاسلامي الذين
عرفوا بكرهياتهم البره لكل ما هو جاهلي لن يرضوا عن
انتسابهم في عبادتهم التوحيدية الخالصة الى جاهلي غير
اصلى . (١) .

٧ - وأما نسبتهم الى الصوفانه بجامع قله الغناء في كل فهميم
أبنا ولا لغدت النسبه اليه صوفاني لا صوفى .

٨ - وأما قول من قال ان الكلمة ترجع نسبتها الى الصوف فقول
تعوده الحجج ان ان لباس الصوف ليس مقصورا على الصوفيه
وحدهم دون سواهم ولا ظهر ان ذلك بمثابة اللقب قال
القشيري " (وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العريضة .

قياس ولا اشتقاق ولا أظهر فيه انه كاللقب فلما قول من قال
 ٣ انه من الصوف ولهذا يقال صوف اذا لبس الصوف كما يقال
 (غص) اذا لبس القصب فذلك وجهه ، ولكن القوم لم يختصوا
 بلبس الصوف (١) .

على ان ٣ القصيري يرى ان البحث في انتساب القوم الى
 شكل او هيئة بحث لاغناء فيه ذلك لان هذه الطائفة نفس
 نظيره :

٣ أشهر من ان يحتاج الى تعيينهم الى قياس لفظة
 واستحقاق اشتقاق وتكلم الناس في الصوف . ما معناه ؟ وفي
 الصوف من هو ؟ فكل مجربا وقع له (٢)
 غير ان فريق من العلماء لا يرضى ما ذهب اليه ٣ القصيري
 ومن على شاكلته ومن هؤلاء العلماء الشيخ زكريا الانصاري
 شارح الرسالة القشيرية .

(١) الرسالة القشيرية ج ٢ طدار الكتب الحديثة

(٢) المرجع القشيرية ج ٣ ص ٥٥١ .

وابن تيمية ، والطوسي صاحب "اللمع" الذي انتهى السبيل أن
الآتي أن ينسبوا :

الى ظاهر البهية لان ليس الصوفى رأب الانبياء عليهم السلام وشعار
الأولياء والاصفياء ويكثر في ذلك الروايات والاخبار ، فلما أخفتهم
الى ظاهر البهية كان ذلك اسط مجللا عاما مخبرا عن جميع العلوم
والاعمال والاخلاق الشريفة الحميدة ، ألا ترعوا أن الله تعالى ذكر
طائفة من خواص اصحاب (عيسى عليه السلام) الى ظاهره البهية
فقال عز وجل (واذ قال الحواريون) وكانوا يلجئون الى بياض قنسبهم
الى ذلك ولم ينسبهم الى نوع من العلوم والاعمال والأحوال السقي
كانوا بها متمرسين فكذلك الصوفية نسبوا الى ظاهرة اللباس ولم
ينسبوا الى نوع من أنواع العلوم الأخرى والأحوال التي هم بها
متمرسون فكذلك الصوفية عندى (١) .

(١) اللمع للطوسي ص ١١٥ ط ١ دار الكتب الحديثة .

ويرتضى ابن تيمية* ما ذهب اليه العلامة الطوسي* فيقول :
 "واسم الصوفيه هو نسبة الى لباس الصوف وهذا هو الصحيح^(١)

ثم يعدد كثيرا من الآراء فيقدها ويرفضها جميعا مستندا الى
 رفضه الى التحليل اللفظي والمعلومات التاريخية عن اهل الصفة
 فيذكر ٢ ان اهل الصفة لم يكونوا اناسا بأعيانهم يلزمون الصفة ، بل
 كانوا يلقون ثوبه ، ويكثرون أخرى ، ويقم الرجل بها زنا " نسيم
 ينتقل منها ، والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين ليس
 لهم منزلة في علم ولا دين ، بل فيهم من ارتد عن الاسلام وقتل النبي صلى الله
 عليه وسلم - فما البهران لان ينسب الصوفيه لأهل الصفة ؟ " (٢) .

والى مثل هذا الوأى يذهب فريق من العلماء المحدثين أمثال
 المستشرقين مرجليون ، ود ، زكي مبارك ، والشيخ مصطفى عبد الرزاق
 ود ، أحمد أمين ، ود ، عبد الحليم محمود الذي يلاحظ أن هناك
 علاقة وثيقة الصلة بين الصوف والصوفية فلبسهم خشن ، وحياتهم
 خشنة فهنا تطابق ظاهر لبسهم ، وها هنا أحوالهم .

(١) (٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٣٦ ج ١
 دراسة دار البحوث الإسلامية .

ونحن نرى ان الأولى عدم حبسهم في قوالب محدده فانهم
لا ينسبون الى حال بعينه فهم ينتقلون بين الاحوال كأنهم طيور
تأوى الى أعشاشها متى فيها دون ان تفر على قرار أو تثبت على
حال وهذا ما أرتأه السهروردى " صاحب (عوارف المعارف) . .

حيث رأى ان وقفهم على صفه دون صفه هو انتقاص لهم ذلك
لأن حالهم بين سير وطيور ولتقليبهم في الاحوال وارتقائهم من اعلى
الى اعلى منه ، لا يفيدهم وحده ولا يحبسهم نعمته ، وابواب انمزيد علم
وحالا عليهم مفتوحه ، باطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم فلمسا
تعذر تقيدهم بحال لتنوع وجدانهم تحبوا الى ظاهر الله وكنان
ذلك أبين في الاشارة اليهم وأدعى الى حصر وصفهم لأن الصوف
كان غالبا على المتقدمين ومن سلفهم (١)

وأخذا لان لبرا الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم
ونسبتهم الى امر آخر من حال او مقام امر باطن ، والحكم بالظاهر
أخفى وأولى . فالقول بأنهم سوا صوفية للبرهم الصوف أليق وأقرب
الى التوضيح (٢) .

(١) عوارف المعارف السهروردى ٦٤٦ ج ١ مكتبة القاهرة

(٢) عوارف المعارف السهروردى ٦٤٦ ج ١ مكتبة القاهرة

(ماهية التصوف)

على ان الخلاف بين العلماء لم يقف عند هذا الحد فسي
بحث اصل الكلمة واشتقاقها بل تجاوز ذلك . الى تحديد معنى
الصوف والتصوف فقد تعددت أقوالهم وتباينت ألفاظهم في شأن هذا
التحديد حتى ذكر صاحب (معارف المعارف) انها : اادت على ألف
قول ونحن نذكر بعضها على سبيل المثال .

فقد سأل ٢ الجنيد " عن التصوف ما هو ؟ فقال " هو أن يبيتك
الحق منك ويحييك به " .

« وسئل ابو محمد الحارثي عن التصوف فقال ٢ الدخول في كسل
خلق نفي والخروج من كل خلق دني

« قال ابو حمزة الهمداني : " علامة التصوف الصادق : أن يفتقر
بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة وعلامة
التصوف الكاذب : أن يستغنى بالدنيا بعد الفقر ، ويمز بعد
الذل ، ويشتهر بعد الخفاء " .

« وقال معروف الكرخي : التصوف ٢ لاخذ بالحقائق والياس مما
في ايدي الخلاق .

(٢٠)

« وسئل القصاب عن التصوف ما هو ؟ قال : " أخلاق كريمة —
ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام . »

« وقال بشر بن الحارث : (الصوفي من صفا لله قلبه) (١) .

« وقال فريد الدين الحطاري وصف أحوال الصوفية بأنهم " قوم
آثروا الله عز وجل على كل شيء " فأثروهم الله عز وجل على كل
شيء " — القشيري ص ١٢٧ .

« وقال الجنيد " (التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع وعمل
مع اتساع) .

القشيري ص ١٢٧ .

« وقال عبد الرحمن بن محبوب عن الصوفي فقال (لنفسه ذابح
ولهباء فاضح ، ولعدوه جاريح ، وللخلق ناصح ، دائم الوجيل
يحكم الميل ، ويعد الأمل ، ويعد الخلل ، ويغض عن
الزلل ، غدره بضاع ، وخوفه صناع ، ويهينه قطاع ، وبالحق
طارف ، وعلى الباب طائف ، عن الكل طارف) .

حلية الأولياء لابي نعيم ص ٢٣ ج ١

« وقال يوم : (الصوف مبنى على ثلاث خصال التمسك بالفقير
والانقطاع ، والتحقق بالبذل والايثار وترك التمرض والاختيار

القشيري ص ١٢٧ .

« وقال ابو بكر الكثاني : (الصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق
فقد زاد عليك في الصفا »)

القشيري ص ١٢٧ .

« قال ابو علي الروندي (الصوف الاناخذة على باب الحبيب
وان طرد عنه)

القشيري ص ١٢٧ .

« قال ذي النون المصري (الصوفي من لا يتمبه طلبه ولا يزعمه
سلب) .

« وقال سهل بن عبد الله التستري (الصوفي من صفا من الكسوف
وأمتلا من الفكر ، وانقطع الى الله من البشر ، واستوى
عنده الذهب والدر) .

« قال ابو بكر الكثاني (التصوف صفاً ومفاهدة) .

« قال ابو سميد بن ابي الخير يقول (التصوف هو ان تتخلى عن كل ما في دماغك ، وتجد بكل ما في يدك ولا تجزع لشيء أصابك)

« وسئل القيلي عن الصوفي فقال (من صفا قلبه نصفى ، وسلك طريق الصطفى ، ورى الدنيا خلف القفا ، وأذاق الهوى طعم الجفا) .

• حلية الاولياء ص ٢٣ ج ١ .

« يقول ابو الحسن النورى (الصوفى لا يملك ولا يملكه) كشف المحجوب الهجوهرى ص ٢٧ ج ١ .

وله أيضاً (الصوفيه قوم صفت قلوبهم من كدورات البشيره وتحردوا من شهواتهم حتى صاروا فى الصف الاول والدرجه العليا مع الحق . فاذا تركوا كل ما سوى الحق صاروا لا مالكين ولا يملكون)

• تذكرة الاولياء .

ورغم ان تلك التعريفات كثيرة ومتعدده الا انها لا تعطينا
 حدا جامعاً مانعاً ، وكل ما هناك أنها تعطى صورة عن الحالة
 التي يحس بها صاحب هذا التعريف أو ذاك حسب ثقليه نفسى
 الاحوال ، ولذا فان سلامة المنهج تقتضى الاخذ بهذه التعريفات
 جميعاً مع علمنا انها تعبر عن مراحل مختلفة .

ويمكن تصنيف تلك التعريفات الى ثلاث مجاميع : -

- « المجموعة الأولى : تتحدث عن البدايات .
- « المجموعة الثانية : تتحدث عن الجاهلادات .
- « المجموعة الثالثة : تتحدث عن المذاقعات .

وكل مرحلة منها ذات سمه تميزها عن الأخرى وتطبع المالك
 بطبيعتها الخاص ، ومن ثم يتحدث عما تعرضه طبيعة المرحلة عليه
 من احساس ووجدان .

الفصل الاول

المراحل التي مر بها الصوف

« المراحل التي مر بها التصوف »

الذين هموا بتتبع حركة التصوف الاسلامى منذ نشأته يدركون
انه تيار وجد في البهية الاسلامية نتيجة التآسى برسول الله صلى
الله عليه وسلم تأسيسا كاملا فيها يحب أو يذر .

وقد نشأ عن تلك المحبة عزوفا عن الدنيا وإمعانا في الزهد
فيها على اساسياتها ممر الى الآخرة التي هي دار المقام الحقيقي
وعليه فقد نشأ التصوف في أول أمره زاهدا بسيطا في قلوب المسلمين
وساخا ولاتهم الثقل من الأكل والشرب والملبس ، وعلى هسفا
الاساس فليس هناك فرق في الكلمة بين الزهد والفقر ، والتصوف
ولأن هذه الالفاظ مترادفات لشيء واحد هو الزهد فيما يقبل
عليه الناس من متاع الحياة التي هي جوهر رائل ، وزخرف حائل
وزينة ماتلتب أن تزورها الرياح حين تحيط بها من كل جانب فإذا
هي قد تحولت الى ذرات اذهبتها الرياح الهوج وقد خلست
الدنيا من كل بهجة كانت تلبسها وتزين بها ولم يبق الا التمسك
بحقيقة النعم الأخرى .

ولقد كان حب الندين غالبا على المسلمين في صدر الاسلام

فلم يكنزوا بحاجة الى صفات تميزهم أو جماعات تجمعهم ، اللهم
 الا الأرتباط بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يدقمهم ، فعا
 الى الرباط لحراسة هذا الدين من أن تشوبه شائبه أو يكسدر
 صفوه مكدرومن ثم اعرضوا عن زينة الحياة الدنيا فحلوا عن الدنيا
 مطى رحالهم ، وقطعوا منها حبال آملهم ، زاهدین فیہا
 منقطعين الى الله للعبادة والذكر .

غير أن هؤلاء الذين أشرروا الزهد في الدنيا لم تكن تجمعهم
 . أى رابطته بل كان لكل منهم وسيلة الخاصة من دماء وتعب
 وإن التقي الكل في النهاية على هدف واحد وهو رضا الله عز وجل
 بقصد الحصول على أعلى الدرجات تلك هي سمة المرحلة الأولى
 من مراحل التصوف .

« المرحلة الثانية »

وظل الناس على هذا الحال الى أن طغى التيار المادى على الحياة فى أوائل القرن الثالث الهجرى واثلاه من قرون ، واختلف الناس وتباينت مراتبهم فى درجة الاقبال على تلك المتع المادية ولم يكن نصيب القلوب من ذلك الا الانتقال وعدم الاكتراث بأعمال الباطن التى هى من صميم الدين بل هى الدين كله إذ بها يتم السيطرة على الهواجس والخطرات والنوايا والضمائر والمعزوم والارادات وما الى ذلك من احوال النفس التى لو وكل أمر قيادتها الى الغرائز لآفلتت من عقابها ولا أمكن السيطرة عليها صداق لقول القائل :

« والنفس كالطفل ان تهمله شب

على حب الرضاع وان تنظمه ينظم

وقول آخر :

« والنفس راقعة اذا رغبت بها

واذا ترد الى قسيل تتحسح

وأما هذا الانحراف من الجادة لم يجد الفقهاء بدا مسن
المعروف على دراسة أحكام الأعمال الظاهرة المتعلقة بالإسداء
كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج وما الرذلك كما عكفوا على
دراسة المسائل التي تعم بها الهوى .

كالحدود والزواج والعنق والبيع والميراث وأصطلحوا على تسمية
هذا النوع من البحوث - المتعلقة بأجزاء الأحكام على أعمال
الأيديان من حلال وحرام ووجوب وإباحة - بعلم الفقه وأهل
هذا الفن هم الفقهاء وأولوا الفتيا والاجتهاد فيما يمن للجمع
الاسلامي أثناء سيرته في حركة التاريخ سميا الى التقدم والافتراق
من الكمال .

كما اهتم فريق من العلماء بدراسة العقيدة في قالب علمي عرفت
أبحاثه باسم (علم الكلام) ولقد كان لهذا العلم بريق غسلا من
استهوى كثيرا من القيادات بقصد استخلاص الحجج وتبني النتائج
فأقبل العلماء على علم الكلام يتفحصونه ويرتبون طرق المحاولات
والمناظرات التي بعدت كثيرا عن المفاهيم المستقرة عند سلف الامة
وأصطب هذا النهج يزعمون ان ابتداء تلك الطرق في المناظرات
والمناقشات إنما هو للذب عن دين الله والنضال عن المنة وتمسح
البيد عنه .

« تأخذ الصوفية على الفقهاء والتكلميين »

فهم أن الصوفية لم يجدوا في هذين النوعين من الفكر غذاءً لآراءهم فالفقهاء في نظر الصوفية أصحاب رسوم وطقوس وشعائر يهتمون بتتبعها من حيث الاحتال الظاهري لما أمته الاحكام

وأما التكلميين فبهم أعد بعدا من الصوفية حيث يهتنون بالناقشات والجاءلات التي تؤدي الى قسوة القلب وحجة عن التدبر والانس والقرب من الله (ولهذا السبب كان الصحابة رضي الله عنهم أبعد الناس عن هذا الاتجاه في التفكير ، فقد علقوا هذا الدين مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يرفضون الجدل فرالدين رفضاً قاطعاً معتقدين ان كل ما أطلقه الله على نفسه واجب الثبوت فلم يتكلموا النص تأويلاً ولا الصفات تعطيلاً مع نفي التشبيه بخلقه ومعتقد جميعهم اجراء النص على ما ورد (١)

وهذا اتجاه سلف الامة وضوان الله عليهم أجمعين فهذا مالك ابن أنس ٣٠٠ م دار الهجرة الذي يقول (الكلام في الدين

(١) الخطط للمقريزي .

أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه . ونهين عنه ، ولا أحسب
الكلام إلا فيها تحته عمل) .

* وقال أحمد بن حنبل (لا يفلح صاحب كلام أهدأ ولا تكاد نرى
أحدا ينظر في الكلام إلا في قلبه دغل) (١) .

فهناك إذن خلاف جوهري بين الفقهاء المتكلمين والصوفية
وإن اتحدت شقة الخلاف مع فريق المتكلمين حيث يمكن التقريب
بدرجة أو بأخرى بين كل من الفقهاء والصوفية في السلك .

فالفقهاء يجعلون تطبيق الأحكام طريقا للوصول إلى الله
في حين أن أهل التصوف يرون الوقوف مع أدب الصبرم ظاهرًا
وباطنًا هو الطريق الأمثل في الوصول إلى الله .

لكن المسافة بين المتكلمين والصوفية بعيدة الفقه حيث
يسلك المتكلمون طريق الجدال وما يتشعب عنه من محاولات
ومجادلات تؤدي في النهاية إلى جلب العثرات وإغلاق القلوب .

(١) الفلسفة الإسلامية من تطور تحليل (مطهرات) د / محمد
محمود شحاته .

« ونحن نعتبر ان التصوف هو رد فعل لعلل الفقه والكلام
ولقد سبقت الإشارة الى انه يمكن التقريب بين الفقه والتصوف
وأما علم الكلام والتصوف فهناك فرق بعيد ومما فيه شاسعه
نظراً للاختلاف الجوهرى بينهما ، فالكلام من سلكه الجدل
والاعتناد على العقل اعتياداً كلياً .

بينما لا نجد ذلك عند المتصوفة فغاية القول في علم الكلام
انه علم يردى بمواجهه الى طرف عقل يشحن الهمم في بقصد
أصحابه دين ان يكون له مفهوم لدى الصوفية ، وكان لابد ان نشأ
في مقابل هذين العطين - الذين هما الفقه والكلام - علم آخر
هو (علم الباطن) .

وهو ذلك العلم الذى يتعامل مع يدوق القلب من حسيلاوة
الايمان أثناء مطولة السالك التماسى والارتقاء الى العلم العلوى
غير المنظور الذى هو ارواء الطبيعة المادية وهم يقررون ان ذلك
الترقى لا يتم الا بتخليص النفس من كدوره المادة وملائق البدن
وشواغل الحس وذلك برفض تألفه النفس فى العادة من السلطان
والجاء والبال والابتعاد عن الخلق فى الخلوة وبجافة شهوات
البطن والفرج ومقاومة الرسم والمعاداة كراحة النوم والانس
بالذات وما الى ذلك من الحياة المادية الدنيوية الى أن يصبح

ذلك له خلقا جيليا يستغنى به عن دنيا الناس ، وأولئك
المستغلون بتصفية النفس يعرفون بالزهاد والمعبود والصوفية

وقد كان طابعهم الذى يتميزون به عن غيرهم من التيارات
الموجودة على الساحة الفكرية ان ذاك هو عنايتهم بتهديب النفس
والسلوك وقد غلب عليهم الطابع الأخلاقى فى العلم والعمل وأصبح
التصوف علما للأخلاق الدينية تميزا عما سواه من العلوم الأخرى
ودفعهم ذلك الى التعمق فى دراسة احوال النفس الانسانية
والمعرفة الذوقية والكلام عن الذات الالهية من حيث تبادل العلم
بينها وبين الانسان ومع حركة التاريخ تنوعت كتابه فى موضوعات
جديدة لم تكن مطروقة فى المراحل السابقة ومنها :-

أ - البجاهدات :

وما يحصل عنها من الاندفاع والمؤجيد ومحاسبة النفس عن
الاعمال .

ب - الكشف والحقائق المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية
والعرش ، والكرسى ، والملائكة ، والحي ، والنبوة والروح
وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وترتيب الأكنان فى عدها
عن موجد ها وتكوينها .

ج - التصرفات في العالم والاكوان بأنواع الكرامات وغوارق العادات
 د - صدور الالفاظ الموهبه الظاهره والتي تعرف بالسطحات
 وهي العبارات التي تشكل ظواهرها ، والناس بالنسبه
 لها بين منكر ومأول .

أ - المجاهدات وما يحصل عنها من الاذواق والمواجيد
 وسحابة النفس على الاعمال . ولا بد للسالك المنبسط أن
 يترقى في هذه التجارب التي تعبر عنها لغة هذا الفن
 بالقامات أو المنازل والاحوال (والقام يفتح الهم ضمها
 ما يتحقق به المزيد من الصفات المكتسبه بالرياضه والمجاهد كقام
 الخوف من الله الذي يحصل بترك الكفاثر ، فالصفات سر
 فالكروحات ، فالشبه ، فالتوسع في الحلال الى أن ينتهي
 الى ترك كل ما يشغل عن الله والحال معنى يرد على القلب
 من غير تعدد ولا اجتلاب كالطرب والعز والشفق والهيبه
 فالاحوال مؤهب والقامات مكاسب بمؤهب لانها انما تتال
 بالكسب مع الموهبه ، والعبد بالاحوال يترقى الى القامات
 ولا يلوح من مقام أعلى من مقامه الا وقد قرب ترقية وليس للمريد
 أن يتشوق الى مقام فوق مقامه ما لم يستوف أحكام ذلك المقام
 وأحواله ومنهم من يقول بالاحوال من نتائج القامات

والقامات نتائج الاعمال فكل من كان اصلح عملا كان أعلى مقامًا وكل من كان أعلى مقامًا كان أعظم حلا (١) .

ب - الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب وهذا الكشف لتلك الحقائق التي هي من عالم الغيب لا بد فيه من معاناة قبل أن يصل السالك اليه ، حيث يتعين القيام بتصفية النفس بتخلصها من شوائب الحس حتى يصبح البدن ليس فيه الا الحركة التي ترمز الى الحياة البادية بينما هو قد فارق تلك الحياة الى حياة يحياها في داخله تتركز على اشغال النفس بالله وارتباطها على عدم التفكير فيما سواه ولا يحقق ذلك الا بعد مرور السالك بتمام التقوى ثم الاستقامة والاستمرار في ^{فتح} قلبه عن العلائق الدنيوية ثم يكون الكشف بعد ذلك الطريق الطهيل ، فاذا وصل الى ذلك تجلى له جلال الحضرة وتجلى له الحق وعظم القرح والذء وطار به السور وظهور من لطائف الله ما يقصر عنه وصف الراصين .

ج - التصرفات في العوالم والاكوان بأنواع الكمالات فقد قالوا ان من استغرقته العبادة اجرى الله على لسانه يده من الكرامة ما هو

(١) الاسلام والتصوف بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٤٦ جزء الشعب

خارق للعادة ، وقد استندوا في ذلك الى القرآن الكريم
والاحاديث القدسية وما وقع لبعض الصحابة .

فأما القرآن فقوله تعالى " وما تشاؤون الا أن يعاها الله " .
فقد ربط الصلوة لقلب الاولياء بمشيئة الله فإذا شاء عـــــــمـــــــى
كانت قلوبهم تابعة لمشيئته .

وأما الحديث القدسي فقوله تعالى في الحديث الذي جرى
على لسان النبي صلى الله عليه وسلم (من عا دى لى ولما فقد
آذنته بالحرب وما زال عبدى يتقرب لى بالنوافل حتى أحبه
فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ... وحيته التى يبصر بها
هداه التى يمشى بها .

وإذا كان الذى يعا دى الولى الذى تولى الله بالمعبادة
وتولاه بالحب والرواية فقد وصل الولى الى مرحلة من القرب يشمر
بلذة لاستطيع نحن أن نعبر عنها كما يعبر عنها ذلك الولى
وهذا الحال يحدث له من أنواع الكلمات ما هو خارق للعادة
كما يظهر فضل الله عليه على أن هذه الكلمات يجب الا تكون مقصودا
للسالك بل لأنها هي ما ياتى لى لى به وقد وقع ذلك للصحابة

والتابمين " ما الجملة قال قول يجواز ظهورها على الاولياء واجب
وعليه جمهور اهل المعرفة ولكثرة ما تناثر بأجناسها الاغـسـبار
والحكايات صار العلم يكتونها وظهورها على الاولياء في الجملة
قويا تنفى عنها الشكوك . . . من دلائل هذه الجملة نص القرآن
في قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال - انا آتاك به قبل
أن يرتد اليك طرفك - ولم يكن نبيا ولا أثر عن أمير المؤمنين
عشرين الخطاب عنه صحيح أنه قال يا سارية الجبل فسي حال
خطبته يوم الجمعة وتبلغ صوت عمرا الى سارية في ذلك الوقت حتى
تحزروا من مكان العدو من الجبل في تلك الساعة " (١)

ومن شروط الكرامة واجب سترها وإخفاؤها لأنها جانب من
السر الذي يجب عدم البوح به ولا يدعها أو يلاحظها أو يمكن
البيها لأن ذلك يخرجها من ارادة الله الى ارادته ويخرج الكرامة
من أن تكون فعلا خالصا للـــــــ .

(١) الرسالة القفيرية ص ٦٦٣ تحقيق / عبد الحليم محمود
ود / محمود الشريف ج ١ ، دار الكتب الحديثة .

د - (الفاظ موجهه الظاهر صدرت من بعض أئمة القسوم
يعبرون عنها في اصطلاحهم بالسطحات) (١) .

وهي عبارة تطلق عادة على ما يحس به الصوفي من وجود
فأخر بقوة وظل على صاحبه حتى أصبح غير مالك لحاله فينطق
بالفاظ ظاهرها الكفر مثل قول أبي يزيد البسطامي المتوفى
٢٦١ هـ أنه قال :

رغمي مرة فأقامني بين يديه وقال يا أبا يزيد ان خلقي
يحبون أن يهوك فقلت : زهني بوجدانيتك هـ وأبسمي أنا نيتك
وراعمني الى أحديتك حتى اذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكن
أنت ولا أكون أنا هناك " ونحوه مما قال به الحلاج في سطحات
كثيرة من هذا اللون والحق أن القوم هنا ما بين منكر ومتأول .

في طليعة الذين انكروا على الصوفية مقاتلهم ابن الجوزي
الذي قال : ان الصوفية مأخوذون بما يقولون وإن ادعائهم
(الغيبة والمحو والسكر والقناء) وما الى ذلك أنا هو نتج من هائد
الشیطان الذي أوقعهم في شباك حيث وسوس لهم بما قالوا ولقد كفروا

(١) شرح الالفاظ التي تداولها الصوفية مخطوط مكتبة أبي العباس
المرسي - بالاسكندرية .

بهذه المقولات بعد اسلامهم (١) .

وأما المتأولون فقد اعتدوا على صدور من الصوفية من أقوال
بأنهم مجبرون على ما قالوا نظرا لأن ما يجده الصوفي هو شمسور
فياض يجعله مفاعلا للجسد يغفلا يشرع الا بالحضرة الالهية تهتف
في نفسه .

وعلى هذا الأساس دفع الجنيد بن محمد شيخ الطائفة
ت (٢٩٨) عن أبي يزيد البسطامي ت (٢٦١) (ووسطا تـ
سبحاني سبحاني أنا ربكم الأعلى حين جاءه من ينكر عليه ذلك
ان رد قائلا : ان الرجل يستهلك في شهوة الجلال فنطق بها
استهلكه لذهوله في الحق عن رؤيته اياه ، فلم يشهد الا الحق
تعالى فتمت فـنطق به (١) .

وتحرب من هذا ايضا ما قاله ابن تيمية بعض غاصيل
أحوال الواردة على القلب هي ان نواقف القوم من الحكم على تلك
المواجيد والاندواق ، والاحوال وغير ذلك مما لا مدفع للعبد

(١) تلبس باليس لاين الجزوى .

ففيها معنى أنه ليس للعبد اختيار فيما يحدث له نتيجة لهذه الاذواق وتلك الاحوال . فان هذا يتوقف على السبب الدافع الى النطق بتلك الالفاظ وتلك التصرفات التي ترتبت على غياب العقل فان صاحبها معذور ويقرر أن الذي عليه جمهور العلماء .

(ان الواحد من هؤلاء اذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه — وان كان حال الثابت أكمل منه) (١) .

وأما حجة الاسلام أبي حامد الغزالي فيفرق بين نوعين من الدسطات نوع يصدر عن عبارات كثيرة لها رنين خاص دون أن يكون وأثرها مظاهر محددة وأحيانا لا يفهمها قائلها لما بحقيقة من تخطيط وتشويه وثارة يكون القائل فاهما للمعاني المرادة من الكلمات التي صدرت عنه دون أن يكون قادرا على إيصال المعنى وإبرازه للسامعين ويقرر أنه لا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يفسد القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحصل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون كل واحد على مقتضى هواه وطبعه (٢) .

أما النوح الثاني نوح جليل الخطر لأنه يتصل أعمالا مباشرة بالحدث عن الحق سبحانه وتعالى حيث يدعى السالك رفع الانية بهنه وبين المعبود سبحانه وتعالى ومن ثم فيسهل على العاصق أن يدعى الانتباه بهنه وبين الله عز وجل وارتفاع الحجاب وادعاء

(١) انظر مجلة عالم الفكر التصوف ايجاباته وسلبياته ص ٢٦٣

العدد الثاني - المجلد السادس سنة ١٩٧٥

د / احمد محمود صبحي .

المشاهدة وما يليها ذلك من تغيرات ليست معقولة .
 ومنهجون على مناهج الحسين بن منصور العلاج نفس
 بقائه المتداولة على ألسنة تلاميذه مثل قوله (أنا الحق) وقول
 أبي يزيد البطامى سبحانه سبحانه وقرر الامام الغزالي
 أن هذا اللون من الكلام (عظيم ضرورة في العوام) وأن قتل
 من يدعى ذلك أفضل من أحياء غيره . وذلك لأن مثل هذه
 الدعاوى من هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الاعمال
 مع تركية النفس يدرك القامات والاحوال فلا تميز الاغبياء ممن
 دعوى ذلك لانفسهم ولا عن تلقف كلمات مغبطة مزعومة ومهملة
 أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا هذا انكار صدرة
 العلم والجدل والعلم حجاب به والجدل عمل النفس وهذا
 الحديث لا يلوح من الباطن . . . بمكاشفة نور الحق (١)
 وهذا الرأي الذي يراه الامام الغزالي في صفحات العلاج
 لا يرى مثله في الشططات التي صدرت عن أبي يزيد حيث ينفي
 عن الرجل ما نسب اليه على فرض نسبة هذا الكلام اليه فهو
 حكاية عن الله عز وجل وليس من كلام أبي يزيد على نحو ما فعلت
 الجنييد شيخ الطائفة في الدفاع عن الرجل .

(١) الصوفية والفقراء لابن تيمية ص ١٤ مطبعة الدينى
 (٢) أحياء علوم الدين للامام الغزالي ص ٦١ ج ١ ط الشعب

يقول الامام الغزالي : (وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وأن سمع ذلك فلملة كان يحكىه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه كما لو سمع وهو يقول اننى أنا لا الله الا أنا فأعبدنى ما كان ينبغي أن يفهم ذلك الا على سهيل الحكاية) (١) .

أما العلامة ابن خلدون فيقرر أن شبه فرق بين حالتين الحالة الاولى : تمديد الفطخ ولا نزاع في أن هذا كفر والطرد . الحالة الثانية : حال صدورة أثناء الغيبة عن الحسن (أن

الانصاف في شأن القوم انهم أهل غيبة عن الحسن والواردات تتكلم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه صاحب الغيبة غير مخاطب والجبور معذوره فمن علم منهم فضلة والتداوة حل على القصد الجميل . . .

ومن لم يعلم فضلة ولا اشتهر فهو مؤاخذ بما صدر عنه ذلك .

إذا لم يتبق لنا ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من يتكلم بمثلها وهو حاضر في حصة ولم يملك الحال فهو مؤاخذ ايضاً .

ولهذا اتى الفقهاء ، وكأبر الصوفية بقتل الحلاج لانه تكلم فى
حضور وهو ملك الحاله (١)

وأبرز ما يميز هذه المرحلة هو بداية انتقال الفكر الصوفى
من العبادة المجردة الى تدوين القواعد والنظريات التى
تحوى حقائق علم القلوب وشرح مصطلحاته لان للقلوب لغسة
خاصة لا تعبثها ألفاظ اللغة وإن الألفاظ اللغوية انما هى
لمعاني متعارف عليها .

والصوفى اثناء تجربته ومخاضاته لا يستخدم هذا النوع من
الالفاظ انما يعبر عن احواله الخاصة بأى وسيلة يراها معبرة
عن ذاته كاشفة عن حقيقة وجدة . ومن ثم فان لهم اصطلاحاتهم
الخاصة التى لا يشركهم فيها غيرهم ولهذا تنوعت تسمية هذا
العلم فسمى علم القلوب ، وعلم الاسرار ، وعلم المعارف ، وعلم
الباطن ، وعلم الاحوال ، والمقامات ، وعلم السلوك ، وعلم
الطريقة وعلم الكاشفة .

هذا فيما يتعلق بالتدوين وكما تتميز هذه المرحلة بشئ
جديد على الفكر الصوفى ذلك هو ظهور البواكير الاولى
للتصوف الفلسفى نتيجة الاحتكاك الثقافات التى كانت ترد على
المسلمين من مختلف مناحى الفكر فظهر الحديث عن فناء العبد
فى الرب على يد البسطامى ت ٢٦١ هـ وقد عبر عن فناء نفس

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١١٢ ، ١١١٤ ج ٢ تحقيق

على عبد الواحد وانى طهضة مصر .

ربه واتحاد به بمحاربات متطرفة أدت الى ثورة الفقهاء عليه كما كان هناك تصوف الحلاج ٢٤٤ هـ الذي تأثر فيه بمصادر اجنبية عن الاسلام وانتهى الامر باعدامه لقائه الشهيرة (أنا الحق) والتي أعلن فيها انه متحد بالذات الالهية كما يرجع كذلك الى كثرة مريديه واحيائه من تأثروا به واعتقدوا في قدرته على احياء الموتى وغير ذلك من الامور التي خيف منها على عقيدة هؤلاء المريدين والعلماء بالاضافة الى ما كان بينه وبين القرامطة من صلات سرية وهم اعداء للخلافة .

هذه العوامل مجتمعة أدت الى قتله وربما للفتنة كما تنافس هذه المرحلة بدعوة بعض شيوخ التصوف كالجنييد والسري السقطي والخوازار وغيرهم بجمع المريدين حولهم وتزويدهم فئات البدايات الاولى للطرق الصوفية وتعتبر هذه الطرق بمثابة المدارس التي تلقت فيه الصوفية آداب الطريق علما وعملا واستغرقت هذه المرحلة القرنين الثالث والاربع الهجريين .

— المرحلة الثالثة : وتقع هذه المرحلة في القرن الخامس الهجري وقد حمل لواءها الامام الفراهيدي الذي رد التصوف الاسلامي الى النبعين الاصليين وهما كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم رفض الانتحار الفلسفي الذي ظهر على يد البهمناسي والحلاج ووضع نظريته في المعرفة التي تقوم على التشكيك .

فيما ذهب إليه الفلاسفة وغيرهم في تحصيل المعرفة
 منتهاها إلى أن طريق الصوفية في المعرفة هو أفضل الطرق
 جميعا وتلك المعرفة لا تأتي الا عندما يكون المبدأ قد وصل إلى
 درجة من الشفا فيه وعندئذ يكون مستعدا لأن يقذف الله النور في
 قلبه ولقد أثنى الغزالي على الصوفية ثناء عظيما واعتدح سيرتهم
 بعد أن عكف على دراستهم علما وهما واعتدا وتجردها
 وبجادة نفس حتى انتهى إلى أن الصوفية هم المالكون
 لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم
 أصوب الطرق وأخلاقهم أوكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء
 وحكمة الحكماء وعلم الباحثين على أسرار الشريعة من العلماء
 ليخبروا من سيرهم وأخلاقهم بهدولة بما هو خير منه لم يجدوا
 إليه سبيلا .

فإن جميع حركاتهم وسلوكهم وظواهرهم وباطنهم مقبضة
 من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور
 يحتفاه به (١) .

وعليه فإن المعرفة اليقينية عند لا تشمل في معرفة
 المتكلمين ، والفلاسفة بل المعرفة اليقينية هي معرفة الصوفية
 التي تقوم على أساس من التدقيق الروحي والكشف الإلهي .
 وعلى أنه حال فإن المعرفة الصوفية الباهرة التي يشير

(١) المنقذ من الضلال للغزالي تحقيق د عبد الحليم محمود

المها الغزالي في المنقذ وفي أحياء علوم الدين وفي الرسالة
 اللدنية تعتبر في نظرية أسس درجات المعرفة على الإطلاق
 وهي وحدها التي تصلح كإداة لمعرفة العالم العقلي الأعلى (١)
 وبذلك يكون الغزالي قد أظلم نوطاً من التصوف المتشبه
 مع أهل السنة والجماعة وبخالف تصوف الحلاج والبسطامسي
 في الطامس .

ثم أخذ نفوذ التصوف المتشبه يزداد في العالم الإسلامي
 مع بداية القرن السادس الهجري الذي تأثر بمفكرة بشار
 الغزالي وبدأ بعض مشايخ التصوف في هذه الحقبة يؤسسون
 طرقة لتشر هذا الفكر ومن هؤلاء الشيخ / السيد أحمد الرفاعي
 المتوفى سنة ٥٢٠ هـ والسيد / عبد القادر الجيلاني المتوفى
 سنة ٦٥١ هـ - وأبو الحسن الشاذلي سنة ٦٥٦ هـ وتلميذه
 أبو العباس البرسي المتوفى سنة ٦٨٦ هـ وتلميذهما ابن عطاء
 الله السكندري المتوفى سنة ٧٠٦ هـ ويعتبر هذا التصوف
 امتداداً لتصوف الغزالي المتشبه وإلى جانب هذا التصوف المتشبه
 فالقرنين السادس والسابع قد وجد التصوف المزج بالفلسفة
 اليونانية لاسيما الأفلاطونية على يد بعض مشيخ التصوف
 كالشيخ رودي القنول صاحب (حكمة الأشراف) المتوفى
 سنة ٥٩١ هـ و عمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٢٢ هـ و محيي
 الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٢٨ هـ وعبد الحق بن سبعين

(١) قراآت في الفلسفة / على النشار ومحمد علي أبو زيان
 ص ٢٠٦ ط الأولى سنة ١٩٦٢ دار القوسية
 للطباعة .

المتوفى سنة ٦٦٩ هـ (١) .

والواقع انهم قد قدموا لنا نظريات عميقة في النفس
والاخلاق والمعرفة والوجود كان لها تأثيرها على من نجسا
نحوهم من الصوفية المتأخرين ويظهر هؤلاء الصوفية المتأخرين
اصبح لدى التصوف الاسلامي تياران -

* احدهما سنى يشتهر رجال التصوف الذين ذكرهم لقصيرى
في الرسالة وهم صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ومن
بعدهم الامام الغزالي ومن تبعه من شيخ الطوسي الثبالي وكان
الطابع المطلب على هؤلاء هو الطابع الخلقى العلى كما
سبق أن أشرنا .

* والتيار الثاني : هو التيار الفلسفى الذى نادى اصطفاة
بنظرية وحدة الوجود التى تعنى انقضاء
الاشئنة والكثرة في الوجود العينى ويشمل
هذا التيار محي الدين بن عربي الذى يعتبر
نموذجاً من الناذج القادرة على تصوير
مدى التزاوج بين الفلسفة والتصوف ،
خلال القرنين السادس والسابع الهجرى
فهو وإن كان صاحب ذوق يفعل ما يفعله
اصطفاة التصوف العنى من رياضات
ومجاهدات بقصد انكشاف الحقيقة الا انه

(١) محاضرات في التصوف الاسلامي

د ١٠٠٠ الوفا الشافعى ص ١٣

يمزج ذلك بالفلسفة والمنازع الميتافيزيقية (فهو صاحب مذهب
 في الوحدة وفي الوجود وفي صدور الموجودات عن موجد لها
 يرى أن الحقيقة الوجودية الحق أنها هي للذات الالهية
 التي تنفخ على الوجود من عين وجودها وتسمع الصم
 والحركة من معين وجودها وليس شئ وجود حقيقي الا للواحد
 الاحد الحق وأما سوى الله فوجوده وهمي ولا يحقق فيه الوجود
 الا بمقدار ما ينفخ عليه من عين الوجود ومعين الجود) (١) .

ومن هنا شهد القرن السابع الهجري وما تلاه من قرون
 سلسلة من الخصومة الطامة بين الفقهاء ومتفلسفي الصوفية
 ولعل أبرز خصومهم الصوفية هو الفقيه الحنبلي عتي الدين
 بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٧ هـ فقد تارثورة عنيفة على تعاملهم
 بمتفلسفي الصوفية لما أدخلوه على الاسلام من مبادئ اجنبية عنه
 وكتب في ذلك عدة رسائل نقد فيها مذاهبهم وكشف عمن
 تناقضها مع المعقول والمنقول ومن هذه الرسائل ما كتبه السي
 النصر المتجنى ورفضه فيه مذاهب الصوفية في الحلول والاتحاد
 ووجود الوجود بصفة خاصة (٢) .

وقد بين في هذه الرسائل انه لا بد من ضرورة الاقتداء
 بالطريقة النبوية وانها هي الاصل والاساس لانه لا عصا لا لرسول
 الله صلى الله عليه وسلم قائلا في ذلك بين الا وادنا العبد
 والعمل والصلاح المتعلق بأصول الاعمال وغورها من الاحوال

(١) الصوفيّة والحب الالهي ص ٨٣ وما بعدها

القلبية والاعمال البدنية على الايمان والسنة والهدى الذى
كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه فقد اصاب طريق
النهضة (٢) .

ومنهج ابن تيمية في نقد متطلسى الصوفية قائم على رفض
كل ما يخالف الكتاب والسنة واقتوال الصحابة واقتضيتهم وفتاويهم
وكل ما اثر عنهم من آراء وهذه النظرية استطاع ابن تيمية
ان ينقى التصوف مما دخل عليه من الثقافات الاجنبية التى
تسبب اى علم من العلوم اثنا سيرته واتجاهه نحو الكمال .

الفصل الثاني

الإسلام كهدى للصوف

الاسلام كمصدر للتصوف

كثرت الكتابات حول هذه النقطة بالذات هل الاسلام هو المصدر الرئيسى الذى استخدم منه الصوفيه اليها ما انهمسوا عراقاتهم ورياضاتهم واذواقهم ومواجهتهم أم انه صدر ضمن مجموعة من المصادر الاجنبية الكثيرة التى أثرت فيه كاليونانية والمسيحية والهندية

فريق من الكتاب المسلمين وقع فى أسر الشر كخداعى الذى نصبة المستشرقون لشكك المسلمين فى ثقافتهم وأرجاعها الى كل ما هو اجنبى .

وجار المستشرقون فى اعتبارهم أن التصوف الاسلامى ليس اصيلا فى نشأته ولا فى منهجه بل هو متأثر بمختلف الثقافات الاجنبية التى ألحظنا اليها ومن ثم اخذ هذا الفريق يقيم بعملية موازنات وتعارفات وتحليلات لمخروطات يرى أن التصوف الاسلامى قد تأثر فيها بثقافات دخيلة على الاسلام وهنا يجب أن نلفت النظر الى ما فى هذا الخبث الاستشراقى من كيد لهذا الدين الذى يقى على مدى التاريخ شامخا لم تستطع هذه النظرات التى غالبا ما تتجنب العمدة العلمية فى طريقة البحث واستخلاص النتائج على حين أن البحث العلمى الصحيح يفرض على الباحث أن يقوم بتحليل الظاهرة موضوع البحث من حيث البيئة التى نشأت فيها والتفاعل بينها وبين الجماعة التى ولدت ونمت فيها هذه الظاهرة ثم يقوم بمراقبة شعور الجماعة

نحو تلك الظاهرة والموقف التي تتخذة منها •
 وإن ذاك يدركه الذي الذي استخدمت منه الجماعة
 مقوماتها وخصايصها مستغنية بذلك عما سواها على أنه يجب
 أن نلاحظ أن الاسلام قد استضاف الثقافات الاجنبية وفتح لها
 صدره على الرحب بلا أسوار شاهقة تحجبها من الاحتكاك بالثقافة
 الاسلامية او قيود تعوق نشاط تلك الثقافة ... وكل ما فعله
 الاسلام انه اوجب على القيادات المنتهية اليه تعزيز الفتح من التمسك
 ومن هذا المنطلق عرف المسلمون فيها عرفوا ثقافة
 اليونان وخرمهم من الامم دون خوف كما قلنا •
 ولا عجب فالقرآن هو الذي أرسى تلك القاعدة التي
 تقول لا يصح الا الصحيح •

ذلك كله يتم في حواشي النص القرآني الذي يقول
 " ظالم الزيد فيذهب جفاً " وأما ما ينفع الناس فيبكت فسي الارض
 (١) • (٢) •

على هذا الاساس نشأ التصوف كأي علم من العلوم لهم
 مقوماته الاسلامية الاصلية التي تقوم على الانقطاع الى الله فسي
 العبادة بالخلوة والذكر والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذة
 ومتاع هكذا بدأ التصوف نموة في ظلال الكتاب والسنة وظل على

(١) سورة الرعد الاية ١٧

(٢) الفلسفة الاسلامية من منظور تحليلي للمؤلف ص ١٢

هذا الطال نقيا من الصواب التي تذكر صفوة ثم دخلت
 في الاسلام أم لا؟ وشعوب ذو ثقافات متباينة، وكان مسن
 أولئك و هؤلاء افراد كانت نفوسهم منطوية على أغراض أخرى
 وكان من الطبيعي أن تحتك تلك الثقافات بالاسلام فتعرب
 الى الصوف بعضا فكار غربية عن الاسلام في صور متأخرة (حيث
 مزج الصوف بعلوم اليونان والحكمة الشرقية القديمة وهي تراث
 الهند وفارس والديانات الاخرى كالسيحية، ومزجا الصوف
 بهذه العناصر المتباينة في فلسفة ظاهرها اسلامي واطنها
 غير اسلامي . (٣)

وإن الصوف شأن أي علم من العلوم يشأ ثم ينقسم
 يضاف اليه اضافات عقل أو فكر فليس معنى هذا أن تقسم
 معارك طائفة بين المفكرين المسلمين منهم من يرفض الصوف
 كلية ومنهم من يقبله كلية فتكون بذلك قد حققنا هدف بعض
 المستشرقين الذين يريدون توجيه الضربة القاضية لهذا الدين
 بحيلة الاستغلال الذاتي في أي ناحية من نواحي الفكر
 يقول البرحوم الدكتور / محمد اقبال في كتابة (تطور الفلسفة
 الميتافيزيقية) : (ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهرة
 في بيته ما الى عوامل خارجة عنها فنهمل بذلك العوامل الداخلية
 لانه لا فكرة من الافكار ذات قيمة يكون لها سلطان على نفس

الناس لا اذا كانت تحت الهم بصله فاذا جاء عامل خارجى
 أيقظها ولكنه لا يخلقها خلقا . وعندما بحث المستشرقون فى أصل
 التصوف ذهبوا الى أن مرده الى هذا العامل الخارجى
 أو ذاك ونسبوا أن أليه ظاهرة عقلية أو تطوره عقلى فى أمسية
 لا يكون لها معنى ولا يقهمان الا فى ضوء الظروف العقلية
 السياسية والدينية والاجتماعية التى عاشت فيها هذه الامة قبل
 ظهور تلك الظاهرة (١) . وهذا الفهم الذى فهنته من أن
 التصوف نشأ فى حضان البيئة الاسلامية ربيها لها .

بهرتنا من الفكر الدخيل يجهدنا فيه ابن تيمية السذى عرف
 بمهجهته الشديدة للتصوف فقد سلم بأن التصوف نشأ نفاة
 اسلامية حيث يقول (ان مشايخ التصوف وغيرهم يأمرن اهل
 القلوب ارباب الزهد والعبادة والمعرفة والكشف يلزم الكتاب
 والسنة قال الجنيد بن محمد (علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة
 فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم بعلمنا
 وقال الشيخ ابو سليمان الدراوى (وانه لتمر يقلى النكته من نكت
 القوم فلا اقبلها الا شاهدين الكتاب والسنة) وقال ابو عثمان
 النيسابورى (ومن أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق الحكمة
 ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة فان الله يقول (وان تطيعوه
 تهتدوا) ومثل هذا كثير من كلام المشايخ والمعارفين وائمة الهدى

(١) نقلا عن ابن العلا غلبى من كتاب التصوف الثور والروحية
 فى الاسلام ص ٥٥

وأفضل أهلها الله عندهم اكملهم متابعة للأنبياء (١)

ويؤكد ابن تيمية انتفاء الزهاد الأئمة ورضوان الله عليهم - إلى المعين الأول الذي نشأ فيه وهو الإسلام فيقرر (أن الشيخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية وأبو القاسم القشيري في الرسالة كانتا على مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب أهل الحديث كالأفضال بن عياض والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التميمي وعصو بن شان النكسي وأبو عبد الله بن خفيف الشيرازي وغيرهم وكلامهم موجود في السنة (٢) .

سنبين فيما يلي كيف وجد الصوفية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيما أوحى إليه من كتب وسنة معينة أيضا يستمدون منه أذواقهم ومبادئهم مستغنيين به عما ساء من مذاهب وثقافات اجنبية .

(١) الرد على المنطقتين لابن تيمية ص ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥١٦

(٢) الصمدية لابن تيمية ص ٢٦٧ .

أولاً : حياة النبي صلى الله عليه وسلم

يمكننا التمييز بين فترتين من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم :

• الفترة الأولى : في حياته قبل البعثة والثانية في حياته بعد ها وفي كل فترة من هاتين الفترتين وجد الصوفية لانفسهم هدر غنيا فيها استدرة من صنوف العلم ودروب العمل .

حياته قبل البعثة :

لا يخفى في أن تحنف الرسول الله صلى الله عليه وسلم الفاضل الخار وحيدا منزولا من الاهل والولد ملكا في الحقيقة التي توجه الكون في حركاته وسكناته . وما اضفى عليه هذا التكريم هدير البهائم وراحة اليقين وبر السكينة . فاذا نظرنا في ذلك وازنا بين هذا الطال وبين احوال الزهاد والعباد الذين ظهرنا بعد وعرفنا باسم الصوفية .

استطعنا أن نبين في عصر الصلة بين حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبين حياة الصوفية ، واستطعنا ايضا أن نرد طريقة هؤلاء القوم بما تشتمل عليه من رياضات ومجاهدات ومن أدواق ومواجيد وما تنتهي .

اليه من كشف الحقائق ومعرفته للقائق الى مصدرها الاول في
هذه الحياة الروحية الخاصة التي يحياها محمد صلى الله عليه وسلم (١)
والتي تجرد فيها من مؤثرات البيئة والتقاليد الاجتماعية فقد كان
عزوف عنها زاهدا فيها معتقدا ان تلك الطقوس والرسوم هسى
عوائق تمنع من الوصول الى الحقيقة .

هذا التجرد عن كل صفات البيئة ومبادئها قد كان سبيلة
الى كشف حقائق التوحيد التي انتهت بعد الايمان في تطهير نفسية
حتى اصبحت مستعدة لتلقى الاجابة على تلك التساؤلات الحائرة
التي كانت تتورد في اعمال نفسه اين الحق من ذلك كله ؟ بل
أين الحقيقة فيما يفعل المجتمع المكي من عبادة الوثن وتعميط
الصنم واقامة تلك الطقوس من حولها . وان ذلك وهم يجب أن
يكشف سره وما السبيل الى ذلك الاعزلة وتحفة في غار حراء شهر
من كل عام تتجلى فيه النفس وتتفصح حتى تطل باسراقها على
كون الله العرش حين تغد الساء ضوء ما بعد الغروب .
والأمل في ساعة الصبح حين ينمكب على الظلمة ضوء
ينسخها وما يتلو ذلك من شمس ذات تأثير كبير على نفسية الانسان
والحيوان ففي هذا كله كان يبحث محمد (ص) عن الحقيقة العليا
التي وراء حركات هذا الكون .

(١) الحياة الروحية في الاسلام محمد مصطفى حلى .

ولقد بذل الرسول (ص) جهدا كبيرا من أجل أن يجاوز
مذراكات الحس ليصل الى حالة عليا من الصفاء الذهني والتفسي
تأتي فيه الحقيقة من بعد اجابة عما يحال عن الكون واسرار
وخالقه ومدبرة (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من
علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) (١)

وما من شك في أن الصوفية قد وجدت في عزلة النبي (ص)
معينا فياضا استندوا اليه فيما اخضعوا انفسهم له من هروب
المجاهدات واليهاميات والاذواق وقد أشار الى ذلك حجة
الاسلام الغزالي اذ قال :-

(القاعدة الاولى للعزلة التفرغ للمعبادة والفكر والاستقصاء
بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف
اسرار الله تعالى في أمر الدنيا والاخرة وملوك السماء والارض
فان ذلك يستدعي فراغا ولا فراغ مع المخلوطة فالعزلة وسيلة اليه
وهي اولى بهم ولذلك كان (ص) في ابتداء امره يعتزل نفسي
جبل حراء منعزل اليه حتى قوى فيه نور النبوة فكان الخلق
لا يجيبونه فكانه يهدنه مع الخلق ، وبقلبه مقبلا على الله
تعالى) (٢)

تلك كانت حياته قبل البعثة . ولقد وجد الصوفية الاوائل فيها نموذجا يحتذى واسوة تغذى اراياهم وتدفعهم دفعا الى التحنن والخلوة وما يلزمها من مجاهدات ورياضات وما ينتج من مطاوعة اجتهاد انوار الحقيقة . اثناء الثقلب في المقامات والاحوال وما يجدونه من تأملات لنفسه عيقة هي في اخر الامر معرفة حقيقة وفهم دقيق لتوحيدة عز وجل وتوثيق الصلة بين العبد والرب - الذي هو مصدر كل حركة .

وسكون انقباض وانسباط وحزن وفرح ومجاهدة وذوق - ومكاشفة ومشاهدة وفتح والعبادة في الظاهر وفتح الخلوة في الباطن ذلك هو ما دفع صاحب الرسالة (ص) الى التزام الخلوة والتفكير الدائم في هذا الكون وهو ما حاول الصوفية معرفته عن طريق العزلة والذكر والتفكير .

حياة النبي (ص) بعد البعثة :

على أننا نجد في حياة النبي (ص) بعد البعثة أرضا خصبة لمعارف الصوفية وعلومهم وفهمهم وتقليبهم بين الاحوال التي ترد عليهم والمقامات التي يقومون فيها فقد كان الرسول (ص) زاهدا في متاع الحياة كثير المعكوف على العبادة والتجهد حتى نهاه القرآن عن الرمال بقوله " طه ما أنزلنا عليه القرآن لتشقى " (١) ضاربا في ذلك الشلل على انه لا يخضع

(١) احيا علوم الدين الجزء السادس الامام الغزالي ص ١٠٤٢

في السيادة الا لله وحده وأنه لا يملكه شيء من متاع الحماسة
الزائل والدالة على هذا اكثر من أى تحصى منها قوله (ص)
(الدنيا ملعونة بما فيها الا ما كان لله منها) (١) ومعناه ايضا
قوله (ص) ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فاحظرو
كيف تعلمون) (٢) ومنه قوله (ص) الدنيا دار من لادار له وال
من لا مال له ولها يجيع من لاقل له) (٣) .

كان (ص) يقول (اللهم احببني ممكننا وتوفني ممكننا
واحشرني في زمرة الساكنين ، وأن اشقى الاشقياء من اجتمع عليه
نقر الدنيا وعذاب الآخرة) (٤) .

ولقد أمر الرسول (ص) باهمال الدنيا وعدم الاكتراث
بشأنها فقال (ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد نفسى
ايدي الناس يحبك الناس) (٥) .

واذا كان النبي قد وثقنا في السلوك وأستوتنا التي نتأسى بها
فان أولى الناس بذلك أزواجه فقد خيرهن القرآن الكريم بهن
متاع الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله فاخترن الله ورسوله .
ولننتمع الى أم المؤمنين السيدة طائفة رضى الله عنها
اذا تقول (لما أمر الله رسوله (ص) بتخيير أزواجه بدأى بهن فقال

(١) سورة طه ١٠٦ (٢) رواية الترمذى وابن ماجه عن حديث

ابن هريرة (٣) متفق عليه .

(٤) نهج القدير رواية الحاكم ج ٢ .

انى ذاكر لك أمراً فلا عليك الا لاتعجلنى حتى تستأمرى ابوك
 قالت وقد علم أن ابوى لم يكونوا بأمرانى بمفارقة قالت : ثم قال
 ان الله جل ثناؤه قال " يا أيها النبى قل لا زواجك ان كنتن
 ترون الحياة الدنيا وزينتها فتعالين ! متعكن واسرحكن سراحا
 جميلا ، وان كنتن ترون الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اهد
 للمحستات منكن اجرا عظيما (١) .

قالت : فقلت ففى أى هذا احتأمر ابوى فأنى اريد الله
 ورسوله والدار الآخرة قالت ثم فعل أزواج النبى (ص) مثل
 ما فعلت . (٢)

لقد عاش رسول الله (ص) حياة الزهد ومن يحمل حصى
 نصفه السيدة طائفة تلك الحياة لابن اختها فتقول : (كان
 يمر بى هلال وهلال ما يعقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه
 وسلم نار . قال ابن اختها عروة بن الزبير قلت يا خالسة
 فعلى أى شئ كنتم تعيشين قالت : على الاسودين التمسر
 والماء) (٣)

ومن زهدة فى فرشة وحاجة نفسه يقول سيدنا انس بن مالك
 رضى الله عنه " دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
 على سرير مضطجع مزمل بعشرية وتحت رأسه وسادة من آدم
 حشوها ليفه فدخل عليه نفر من اصحابه ودخل عمر فانحرف
 رسول الله صلى الله عليه (سلم انحرافة فلم ير عمر بهن جنبه

(١) رواية احمد بن كعديك طائفة

(٢) رواية ابن ماجه .

(٣) سورة الاحزاب الايتان ٢٩ و ٢٨

وبين الشريطين وقد أثر الشريط بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى عمر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عمر ؟ قال والله ما أبكى الا لكؤى اعلم انك اكسب على ربك من كسرى وقصر ويميشان فى الدنيا فيما يعيشان فيه أنت يا رسول الله فى المكان الذى أرى فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة قال بلى فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ^(١) فانه كذلك ولقد كان زهدة فى الدنيا يدفعه دفعا الى اتفاق ما يصل الى يده من اغراضها حتى اجمع الراضون على أنه اسخى الناس اجمعين فلا يبيت غدة دينار ولا درهم وأن يلقى شئ لم يوزمة بذل جهدا كبيرا فى اتفاقية كي لا يبيت فى بيته دينار ولا درهم وكان يشتد عليه الجمع الى درجة انه كان يعصب الجبر على بطنه لم يشبع من خبر هر ثلاثة ايام متوالية وتحدث العمدة طائفة رضى الله عنها عن ذلك فتقول (ما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ايام تباط خبر هر حتى مضى لمبيلة) ^(٢)

وباختصار فقد كانت شخصيته بجميع صفات الخير حتمى استحق تلك الشهادة من الله المصطرة فى القرآن الكريم وهو عبد الله ورسوله الى الخلق اجمعين وذلك كله دليل على

(١) الوجاه ١ (٢) رواية البخارى

(٣) رواية الامام احمد -

عظمة تلك الشخصية وهو في نفس الوقت ايمان في تخليد ذلك النموذج البشرى الذى صفاة الله من كد ورة البادة ومخاضة من علائق البدن وشواغل الحس حتى اصطفاة وجعلة موحدا للرسالة العالمية الخالدة وقد تمثلت هذه الاخلاقية الاسلامية بكاملها وجمالها وتوازنها واطوارها وثباتها في محمد صلى الله عليه وسلم وتمثلت في تناء الله العظيم في قوله تعالى **وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ (١) • (٢)**

وهذا الديح اظهر لحقيقة هذه النفس في سورها وشموخها وعظمتها وترفعها عن الدنيا وانها تستمد العظمة من الرسالة المنوطة بها وهي في هذا العلو ابعد مدى من وصف الواصفين الذين اكبروا على الشخصية المحمدية فصفا ودراسة • وصفا وتحليلا هذه الاية قد بلغت نهاية القصد فلم تترك للواصفين مجالا يذكر بعد هذا الديح الذى تتضمنه هذه الاية نظرا لسدورها من الخلاق العليم •

وان كان الصوفية قد وجدوا البادة الاولى لعبادتهم وزهدهم وتقشفهم ومقاماتهم واحوالهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والتي استبطوها وطورها في شكل نظريات ذوقية قائمة على اساس من المعاناة والخبرة الباشرة •

(١) رواه مسلم (٢) سورة القلم آية "٤"

(٣) انظر في ظلال القرآن لسيد قطب ط الشروق ص ٣٦٥٢

المجلد السادس •

(٤) ارجع اللمع المراج الطوسي ص ١٢٤

الفصل الثالث

حياة الصحابة وشأنهم في الزهد

الفصل الثالث

(تهيهيد)

(حياة الصحابة)

كانت حياة الصحابة هي الأخرى منبعها فياضا استقى منه الصوفية منازعهم في إقبالهم على الله ولا يستطيع أى باحث منصف إغفال دور الصحابة عندما يريد التعرف على الأسس التي قامت عليها حياة الصوفية المستمدة من حياة الصحابة وماذا لا لأنهم كانوا يترسمون خطى رسول الله ﷺ في أقواله وأحواله وأفعاله ومن ثم نظر الصوفية إلى الصحابة على أنهم قدوة في جميع أفعالهم ولقد صور الطومى في اللوح بعض أحوال الصحابة حيث روى عن أبي عتبة الحلواني أنه قال : (* ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ أولها أن لقاء الله تعالى كان أحب إليهم) من الحياة * الثانية وأنهم كانوا لا يخافون عدوا قلوبا أو كثرروا والثالثة أنهم لم يكونوا يخافون عوزا من الدنيا وكانوا ياتقون سرقة الله تعالى (١) .

والذى لا شك فيه أن حياة رسول الله ﷺ باقتدائهم

(١) اللوح ص ١٦٧ .

وتأسيهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولة تقليد هم له فى أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ونومه ويقظته ذلك كله كان ركيزة أساسية اعتمد عليها الصوفية فيما ذاقوه من عبادات وأحوال ومقامات وهم على حق فى ذلك لأن الصحابة فى واقع الأمر كانوا رواداً للروح فى هذا المجال بما أودع رسول الله قلوبهم من عقيدة التوحيد التى جعلتهم عباداً خلاصاً له لا يخضعون إلا لمراقبته المسيطرة على قلوبهم وخلقاً صادورهم ووجدانهم حتى كان الفرد منهم دائم المحاسبة للنفس خلال خلواته وجلواته وروحاته وغدواته خائفاً من بهم الحساب الأعظم التى يظهر فيها كرمستور عن أعين الغيبر . وعلى هذا الأساس عمل الصحابة حتى لم يعد للراحة طريق إلى أيدانهم فأجهدوها بالوقوف طويلاً فى قيلم الليل انتظاراً لفتح الله على عقولهم وقلوبهم بفهم جديد يفتح لهم آفاق المعرفة وتزيد فى محبتهم ومن ثم يكون القرب من الله وذلك غاية المعنى وما أجمل هذا الوصف الذى صدر من قائد جيوش الره عندما سأله هرقل عن سر انتصار المسلمين على الره برغم قلة عدد هسم واعتادهم فقال أنا أخبرك يا سيدى إنهم يمشون ويصومون ولا يشربون رهبان بالليل فرسان بالنهار إنهم يصلون ويصومون ولا يشربون الخمر ولا يرتدون ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده وما منهم من أحد إلا ويشقى أن يموت قبل أخيه .

أجل لقد صدق الرجل في وصفه فقد عكف الصحابة على سبيل
القرآن يتفحصونه ويتأملونه بقصد فهم معانيه وإدراك مراميهِ حتى
لقد كانت تمنعهم قراءته الإغراق في النهم فلقد كانوا يمضون أياماً
وليلاً في تأمل القرآن •

وإذا كنا لا نستطيع أن نأتى على كل أخبار الصحابة في الزهد
والورع فيما اتخذوه الصوفية مصدراً لهم فإننا سنورد بعض النماذج
التي تعبر تعبيراً صادقاً أميناً عن مدى ارتباط الصحابة بـ رضوان
الله عليهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعله الأسوة والقذوة
في جميع أحوالهم وأفعالهم •

(أبو بكر الصديق)

ونحن نؤثر أن نبدأ برفيق الفار وموضع أسرار النبي ومحجته، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ذلك الرجل الذي يعتبـرـه الصوفية - بحق - مصدرا لفتح الله عليهم باعتباره خير من يتأسى به بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول أبو بكر الواسطي أحد أعلام الصوفية الكبار (إن أول لسان الصوفية ظهر فـى هذه الأمة على لسان أبي بكر إشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء) (١) .

والسبب في أن الصديق الأول للرسول هو أول لسان للصوفية هو أنه حين خرج من جميع ملكه وزهد في ماله قال له النبي الأعظم ماذا خلّفت لعمالك ؟ قال أبو بكر، الله ورسوله . وهذه الإجابة القلبية النفسية الروحية الطاهرة إن دلت على شيء فإنها تدل على أنها إشارة جليلة لأهل التوحيد في حقائق التفرّد (٢) وهل هناك مثّلٌ رائد في الصديق أعظم من هذا ؟ إنه مثّلٌ في الصديق

(١) اللامع للطوسي ص ١٦٨ .

(٢) اللامع للطوسي ص ١٦٩ - ١٧١ - ١٧٢ .

مع النفس، مثل في علو الهمة، مثل في الغداء، مثل في التضحية .
 وكل تلك المثل به فوعة بحجة الله ورسوله ولهذا كان مرجعها
 للصوفية يفترقون من تصرفاته ما ينتصرون به لمجاهدتهم بقصد
 محاولة تأصيلها وإرجاعها إلى هذا النموذج الراجد الثقة كما
 يعتمدون على فهم أبي بكر لبعض النصوص القرآنية حيث كان ينفرد
 بمواقف ذات طابع ذوقى تتبع من نفسيته الإشراقية العالية ولنضرب
 لذلك مثالا من بين أمثاله الكثيرة تدلنا على مدى عمق فهمه
 للقرآن وإدراك مرامي، يقول أبو بكر (ثلاث آيات من كتاب الله
 اشتغلت بها عما سواها إحداها قوله : " وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ
 بِخَيْرٍ فَلَا كَافٍ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ "

فعلمت أنه إن أرادني بخير لم يقدر أحد أن يرفع عني غيره، وإن
 أرادني بشر لم يقدر أحد أن يصرف غيره وهكذا يؤمن أبو بكر
 بالقدر خير وشره حلوه وشره وهو أصل من أصول العقائد الإيمانية
 التي غرسها الرسول الأمين في صحابته والآية الثانية قوله :
 " الذَّكَرُ بِي أَدَّكَرْكَ " فاشتغلت بذكر الله عن كل مذكور سوى الله
 وهذا الأمر هو أساس الطريق الصوفي كله بل هو أفضل ما نفسى
 التصوف صداقا لقوله تعالى " أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطِينُ الْغُلَامُ "
 أما الآية الثالثة قوله " هَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رَاغِبَا "

فوالله ما هممت برزقي منذ قرأت هذه الآية ، وهذا القول داخل في مقلم التوكل (١) .

من هذا القبيل ما يذكره صاحب الحلية عن إجابة سيوف طرحة أبي بكر على الصحابة ثم أجاب عليه إجابة روحية تختلف عن إجاباتهم فقد قال لهم (ما تقولون في هاتين الآيتين ، إِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا اللَّهُ ثُمَّ اسْقَامُوا " و الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ . قال : ربنا الله ثم اسْقَامُوا ظلم يدينوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم بخطيئة قال : لقد حملتموها على غير الحمل ثم قال : قالوا ربنا الله ثم اسْقَامُوا ظلم يلتفتوا إلى إله غيره ولم يلبسوا إيمانهم بشرك (٧) .

لهذا الذي ذكرناه - وغيره كثير - يقرر الصوفية أنهم يعتمدون على ما رزق الله الصديق من أفهام في مقاماتهم المختلفة كقلم التوحيد والتوكل وغيرها فإذا ما انتقلنا إلى نظرة الصديق إلى الحياة الدنيا نراه عازفاً عنها آزفاً من الآجلة فمن زهد بن أرقم أن أبابكر رضى الله عنه : استقى فأتى بإناء فيه مساء

(١) اللوح للعلوي ص ١٦٩ ١٧١ - ١٧٢ ط
(٧) حلية الأولياء لأبي نعمان ٣٠ - ٣١ ط ١٩٧٤ عنة

وغسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله ففكت وما سكتوا شمس عاد فيكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على معاء لته ثم مسح وجهه وأفاق فقالوا: ما دعاك إلى هذا البكاء ؟ قال كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عنه شيئاً ويقول " إيليك عني " ولم أرمعه أحدًا قلت يا رسول الله أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحدًا ؟ قال : " هذه الدنيا تشلت لي بما فيها قلت لها إيليك عني فتحت وقالت : أما والله لئن انفلتت مني لا ينظت مني من بعدك " فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني (٨) .

من الأمثلة الدالة على زهد في الدنيا ما رواه عن حميد بن هلال قال : لما ولي أبو بكر قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : افرضوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يخنيه قالوا : نعم برده إن أخلقها وضعها وأخذ مثلها وظهسره إذا سافر ونقته على أهله كما كان ينفق قبل على أهله قبل أن يستظف

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : مات أبو بكر رضي الله عنه فما ترك ديناراً ولا درهما وكان قد أخذ قبل ذلك ماله وألقاه في بيت مال المسلمين وقال : كنت أتعجز فيه والتصريحه فلم وليتهم شغلوني عن التجارة والطلب فيه (٩) .

(١) حلية الأولياء لأبي نعمان ص ٣٠ - ٣١ ط ١٩٧٤

(٢) حلية الأولياء لأبي نعمان ج ١ ص ٣٢ .

وعن زهد بن أرقم قال : كان لأبي بكر الصديق رضى الله عنه مملوك يدخل عليه فأتاه ليلة بطعم فتناول منه لقمة ، فقال له : مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة ؟ قال : حملنى على ذلك الجوعين أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقم فى الجاهلية فوفيت لهم فوعدوا فما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني . قال : إن كدت أن تهلكنى فأدخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ ، وجعل لا يخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رى بها . فقيل له يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ قال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كل جسد نبت من سُحت فالنار أولى به فخشيت أن ينبت شئ من جسدى من هذه اللقمة . (١))

وقد وجد الصوفية فيه عطاء مستمرا لما يرون أنه السبيل
 البهيم إلى القرب من الله عز وجل خصوصا في الأحوال التي
 كانت تمتريه وهو يقرأ القرآن الكريم من ذلك ما روته عائشة من
 أن أبا بكر كان رجلا يكثر لا يملك دمه حين يقرأ القرآن فأفزع
 ذلك أشراف قريش فأرسلوا إلى ابن الدخنة فقدم عليهم فأتى
 ابن الدخنة أبا بكر فقال : يا أبا بكر قد علمت الذي عقدت لك
 عليه ، فلما أن تقتصر على ذلك ولما أن ترجع إلّى ذمتي فأنسى
 لا أحب أن تسع العرب أنى أخبرت في عقد رجل عقدت لـه
 فقال أبو بكر : فإني أريد إليك جوارك وأرضي بجوار الله ورسوله ،
 ويرون أنه عندما قدم أهل اليمن ليستمعوا القرآن جعلوا يكرهون
 فقال أبو بكر : هكذا كنا تم قست القلوب .

ويرون أنه كان إذا قرأ القرآن أثناء الصلاة سعى له أن يهر
 كأزهر الرجل من كثرة الخوف والوجل وكان سباقا إلى الخيرات
 بطبعه فيذكر التاريخ أنه كان أول من صدق رسول الله في دعوته
 وكذلك كان أول من يسارع إلى تلبية داعي النبي للمواظرة سـواء
 أكان بالنفس لم بالمال فلما مواظته بالنفس فيشهد لها ما روى من
 أنه عندما وصل النبي إلى باب الغار : قال أبو بكر يا رسول الله
 دعني فلا أدخل قبلك فإن كانت حية أو غيـم كانت لي قبلك فقال :
 ادخل فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيده فكلمها رأى حجرا جـسا

بشبهه فشقه ثم ألغى الحجر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع قال فبقى حجر
فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول الله • قال فلما أصبح قال له النبي
صلى الله عليه وسلم فأين شوكيا أبا بكر ه فأخبره بالذى صنع
فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده فقال " اللهم اجعل أبا بكر
معى فى درجتى يوم القيامة " فأوحى الله تعالى إليه " أن الله
قد استجاب لك " (١) .

وأما مؤازرته بالسال فيشهد لها ما رواه عمر عن واقعة حاول فيها
عمر أن يسبق أبا بكر فما استطاع إلى ذلك سبيلا يقول عمر: أمرنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك ما لا عندى
فقلت اليوم أسبق أبا بكر قال فجئت بنصف ما لى قال فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قال فقلت مثله وأتى أبو بكر بكل
ما عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أبقيت لأهلك
قال : أبقيت لهم الله ورسوله " قال عمر : والله لا أسابقك إلى شئ
أبدا .

وكان دائما يعيش بين حالتي الخوف والرجاء حتى أصبحت
التقوى له مقاما • انظر إليه يوصى الناس بالتقوى فى كل طور من أطوار

(١) الحلية لأبى نعيم ص ٣٣ شهر القرآن والصيام للمؤلف ط الحرية

الحياة وأن يجعلوا القرآن دستورهم في جميع المعاملات (فهذا كتاب الله لا تغنى عجائبه ولا يطفأ نوره ، صدقوا قوله وانتصحووا كتابه واستصبروا فيه ليم الظلمة فإنما خلقكم للعبادة و لكل لكم الكرام الكائنين يعلمون ما تعملون) (يطيل الوقفة متأملا فسن الأجيال السالفة فيجد أنهم ذهبوا في بطون التاريخ حتى لكان التاريخ لا يعرفهم) (فأين الملوك الذين كانوا أثارا الأرض وصورها قد نُسوا ونُسِي ذكرهم فهم اليوم كالأشياء) (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، وهم في ظلمات القبور) (هل تحسن منهم من أحسد أو تسع لهم ركزا) (وأين من تعرفون من أصحابكم ولؤخوانكم ؟ قد وردوا على ما قدموا فعلوا الشقاوة والسعادتين الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيرا ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره وإنه لاخير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة (١)

وكان أبو بكر على قومه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسحاولة تقليد النبي والتمس به في كل ما يدخل تحت الطاقة كان رغم ذلك يضيع الموت أمام ناظره يستحضره في كل لحظة خائفا من النار

(١) الحلية لابن تيمية ص ٣٦٠ ج ١

طالباً الجنة يدل على ذلك ما قاله لعمر في اللحظات الأخيرة من
أجله :

(اتق الله يا عمر واعلم أن الله عز وجل عملاً بالنهار لا يقبله
بالليل وعلماً بالليل لا يقبله بالنهار ، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى
الفرصة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم
الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا
أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة
باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه
الباطل غدا أن يكون خفيفاً ، وأن الله تعالى ذكر أهل الجنة
فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت
لاخاف أن لا ألحق بهم ، وأن الله تعالى ذكر أهل النار فذكرهم
بأسوأ أعمالهم ورد عليهم أحسنه ، فإذا ذكرتهم قلت إنى أرجو
أن لا أكون مع هؤلاء ، ليكون العبد راغباً راغباً لا يتنى على الله
ولا يقنط من رحمته عز وجل ، فإن أنت حفظت وصيتي فلا يكن
غائب أحب إليك من الموت - وهو آتيك - وإن أنت ضيعت وصيتي
فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه (١) .

(١) الحلية لأبي نعيم ص ٣٦ - ٣٧ ج ١

والجملة فقد كانت شخصيته ، رضى الله عنه، مزيجاً من التقوى
 الصاحبة للخوف والرجاء ، والورع مبعوثاً من الكبر والغرور والخيلاء
 والعمى . تتروى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت ليست
 نيامي فطقت أنظر إلى ذيلي ، وأنا أشى في البيت والتفت
 إلى نيامي وذيلي ، فدخل على أبو بكر فقال يا عائشة أما تعلمين
 أن الله لا ينظر إليك الآن ، قلت يوم ذاك ؟ قال : أما علمت
 أن العبد إذا دخله العجب بزينه الدنيا بمقته به عز وجل حتى
 يفارق تلك الزينة ؟ قالت فنزعته فصعدت به . فقال أبو بكر : عسى
 لذلك أن يقرعك ^(١) ويقول هو عن قلبه الموزع بين الخسوف
 والرجاء : لو نادى مناد من السماء أنه لن يلج الجنة إلا رجل
 واحد لرجوت أن أكون أنا هو ، ولو نادى مناد من السماء أنه
 لا يدخل النار إلا رجل واحد لخفت أن أكون أنا هو ^(٢) ولقد
 كان (رضى الله عنه) ذا لطائف وإشارات تعتبر مرجعاً للصوفية
 يفترون منها ويتخذونها مؤثلاً في المحجة فمنها ما روى من أنه
 عندما لحق الرسول بالرفيق الأعلى نظر أبو بكر إلى الصفاة
 من حوله فوجدهم قد اضطربت قلوبهم وطاشت عقولهم ، فعمد

(١) الحلية ص ٣٢ ح١

(٢) المصدر السابق ص ١٧٢ ح١

المنبر ، ثم قال : من كان يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن
محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله
حي لا يموت . واللطفية في ذلك شبيهة لقلوب الصحابة وأفئدة تهمهم .
وقد بدا ثابت الجنان لم يلحقه اضطراب .

ومن اللطائف التي أجراها الله على قلب الصديق ولسانه ما
روى من أن أبا بكر خاطب عائشة قائلاً: إنني كنت نحلتك نحلاً وإنما
هما أخوك وأختك ، وما عرفت طائفة إلا أخين من الذكور وأختين
وقد كان لأبي بكر امرأة حامل في الأشهر الأخيرة لم تلد بعد فألقى
الله في روعه أن ينطق بأسمائهم وقد صدقت فراسته .

قال عنه الجنيد بن محمد شيخ الطائفة (أشرف كلمة في التوحيد
قول أبي بكر سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته
إلا العجز عن معرفته (١) .

ويوم وفاته ارتجفت المدينة من هول المفاجأة وقطع على ذلك
الاضطراب بذلك الرثاء الصادق الذي عبر تعبيراً صادقا عن رفيق
الغار إذ قال : (رحمك الله أبا بكر كنت والله أول القوم إسلاماً

وأصدقهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد بهم على الإسلام وأحاهم عن أهلهم وأنسبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم خلقاً وفضلاً وهدى سبيلاً فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين خيراً ، صدقت رسول الله حين كذب به الناس وواسيته حين تخلوا وقت معه حين قعدوا وسماك الله في كتابه صديقاً فقال (والذي جاء بالصدق وصدق به) يريد محمداً ويريدك كنت والله للإسلام حِصْناً وللكافرين ناكباً ، لم تقلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك ، كنت كالجبل لا تحركه العواصف ولا تنزله القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضعيفاً في دينك ، قوياً في دينك ، متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله جليلاً في الأرض ، كبيراً عند المؤمنين ، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوى ، فلا حرمك الله أجرك ولا أضلنا بحمدك هذا بعض ما أردنا إثباته عن حياة أبي بكر وزهده وورعه وأعراضه عن الدنيا ، هو كما رأينا رفاً من الرأفة الخصبة التي استمد منها الصوفية قواعد السلوك للتعرف على الله عز وجل

(١) البغدادي الفريد لابن عبد ربه تحقيق د / عبد المجيد الترحيني
ص ١٨١ ج ١ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

فإذا انتقلت إلى نموذج آخر من النماذج التي اتخذها الصوفية مثارا لهم وجدنا عمر بن الخطاب ذلك العابد الناسك الورع الذي ضرب أربع الأمثلة في تطبيق الدنيا والزهد فيها، إذ تغلب على قواه النفسية الجسمية فتحول من إنسان معاد للحق عزوفه إلى إنسان قد سخر جميع قواه للإسلام من بعد أن عرف الحق وخالطت بشاشته قلبه حتى لقد أسماه الرسول الفاروق، ويعنى بهذه التسمية أن الله فرق به - يوم أن أسلم - بين الحق والباطل وثبت به قواعد التوحيد على أصولها وأخذت الدعوة إلى دين الله شكلا جديدا إذ تزلزلت أركان الباطل يوم أن أعلن إسلامه . فكان إسلامه فتحا وكانت هجرته نصراً وإمارته رحمة^(١) فكان عمر عند الصوفية صاحب ذوق ووجد وحال وتغيرات عليه الأحوال حتى ثبت في مقام السورق والتقوى والمراقبة ثباتا غير مفارق حتى كان ينادى من بعيد

فتجاوب مع أصداء صوته الجبل الأشم بفسح لصوته الطريق حتى
يصل إلى سمع قائد المسلمين ما يريد من تعليقات (ياسارية
الجبل) ^(١) لهذه الأسباب احتل عمر مكانه طاليا في نفوس الصوفية
لما بين جنبات صدره من نفس عالية وروح رتبة في دفع الدعوة إلى
الامام ولعله راية الحق حتى جمع الله به كلمة المسلمين (فعلت
بالتوحيد أصواتهم بعد تخافت وشبوا في أحوالهم بعد تهاقت) ^(٢).
حق غدا (المكيّة تنطق على لسانه والحق يجري الحكمة عين
بيانه ، كان للحق ما تلا ، وبالحق صائلا ، وللأشغال حاملا ولم
يخف دون الله صائلا) ^(٣) فكان للدين معلنا ولأعمال البر
مبطلنا ^(٤) ولهذا فإن أهل التصوف يشعرون بالانتماء إليه
قولا وعلا فهو عندهم (قائد أهل الإيمان وفقير أهل الإحسان
إمام أهل الحقائق وغريق بحر المحبة صاحب الكرامات المشهورة) ^(٥).

بحيث أصبح عددهم المرجع الذي يغيثون إليه ويستمدون منه
ألبان العبادات التي ذاقوها كما ينسجون على منواله في إقباله
على الآخرة وإعراضه عن الدنيا وزهده فيها، فيذكرون أن سيدنا

(١) انظر سيرة ابن هشام ص ٢٦٩ تحقيق محمد محي الدين ط الحبيب

(٢) ، ، ، (٣) حلية الأولياء ص ٣٨ إلى ٥٥ ج ١ .

(٤) كشف المحجوب للهجوهرى ط دار النهضة العربية ٢٦٩ ، ٢٧٠

عمر قد ناقشته ابنته حفصة في اتخاذ المرقعات من الشيايب
 إذ قالت (لائيها : يا أمير المؤمنين لو اكتسبت ثوباً هو ألين من
 ثوبك وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق وأكثر
 من الخير فقال لها : إني سأأخصك إلى نفسك أما كنت تذكرين
 ما كان رسول الله يلقى من شدة العيش وكذلك أبو بكر فما زال يذكرها
 حتى أبلاكها فقال لها : أما والله لأشأركنهما مثل عيشهما لعل أدرك
 عيشهما الرخي (١) فانظر إلى هذه الدقة في محاولة التأسي برسول
 الله صلى الله عليه وسلم في الزهد في الدنيا والتقرب إلى الله
 بالعيش الخشن وهو الذي يستطيع - لو أراد - أن يعيش قس
 بحبوحة من العيش يصل إلى حد الإغراق في الترف والنعيم لكن
 همته متوجهة إلى الآخرة للحاق بما حبيبه ولقد تأكد هذا المعنى
 فيما يؤثرونه من دوام المطسبة والمراقبة في مثل قوله (زنبوا
 أنفسكم قبل أن توزنوا وحاسبوها قبل أن تحاسبوا فإنه أهون عليكم
 في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم، وتزنوا للعرض الأكبر يومئذ
 تعرضون لا تخفى منكم خافية) (٢)

(١) ابن الجوزي : صفه المصغره ط . الهند ص ٨٠

(٢) حلية الأولياء ص ٥٢ ع ٥٥٠ ج ١

كان لابد أن يكون لعبادته التي عبر بها منطق على يقين
على شدة الخوف من الله و إخلاص العبادة والإيمان في العبودية
واستعمار الرهبة فكان بحق من هؤلاء العباد (الذين يسيئون
الباطل بهجره وحين الحق بذكره ، رغبوا فتزهبوا وذهبوا
فترهبوا ، غافوا فلا يأشون ، أبصروا من اليقين ما لم يمانسوا
أخلصهم الخوف فكانوا يهجرون ما ينقطع عنهم لما يبقى لهم .
الحياة عليهم نعمة ، والموت لهم كرامة ، فزوجوا الحور العيمين
وأخذوا البلدان المخلدين ^(١)

وبعد الخليفة الثاني منارة للصوفية يترسومون خطاء في أقواله
وأفعاله إذ يعتبرون أن الخليفة الثاني عمر - رضى الله عنه - قد
أقام بنيان المنطق الصوفي على أساس من الأقوال والأفعال الستى
أرست القواعد المنهجية للصوفية وأصلها تأصيلا بحيث أصبح لها
كيان متميز وجملة القول : أن أهل التصوف يرون الاقتداء بعمر
سبيلا يصل إلى الغاية المأمولة عندهم ، وهى الثمور الجللى
بالحب والقرب من الله عز وجل وهم يستدلون على ذلك بما تركه
عمر لنا من تراث فى الأقوال والأفعال فمن ذلك قوله للجماعة المسلمة

(١) الخليفة لائى نعيم ص ٥٢ ٥٥ ج ١ .

(كونوا أوعية الكتاب ويتابع العلم وسلوا الله رزق يوم بيسم) (١) .
 وقوله أيضا (لولا ثلاث لا خيبت أن أكون قد لقيت الله لولا أن
 أضع جيبتي لله أو أجلس في مجالس ينتقى فيها طيب الكلام كما
 ينتقى جيد الثمر أو أن أسير في سبيل الله عز وجل) (٢) ولقد
 كان رضى الله عنه يمر بالآية من كتاب الله عز وجل (فيبكي حتى
 يسقط ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضا) ومن تواضعه
 وزهده ما يروون من أن عبد الله بن عباس دخل على عمر حين طعن
 فقال (له أبشريا أيمير المؤمنين ، فإن الله قد مضر بك الأضرار
 ودفع بك النفاق وأغشى بك الرزق ، قال أنى الإمارة تشى على
 يا ابن عباس ، فقلت : ونفى غيرها قال : والذي نفسى بيده
 لو ددت أنى خرجت منها كما دخلت فيها لأجر ولا وزر) (٣) .

ويبدو خوفه من الله فى عباراته التالية التى تعبر عن هذا
 القلب الخائف الوجيل من خشية الله وهى قوله (لو نادى مناد
 من السماء أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلا
 واحدا ، لخفت أن أكون هو ولو نادى مناد أيها الناس إنكم
 داخلون النار إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون هو) (٤)

(١) (٢) (٣) (٤) الحلية لأبى نعيم ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ج ١ .

وانظر إليه وهو يضع دستوراً للأخلاق يهدف قيادة الحياة
يقول رضى الله عنه (لا تعتز من فيما لا يعينك ، واعتزل عدوك
واحتفظ من خيلك إلا الأيمن ، فإن الأيمن من القيم لا يعد له
شيء ، ولا صاحب الفاجر فيعلمك من فجوره ، ولا تقش إلى سر
واستشرني أمرك الذين يخشون الله عز وجل)^(١) ويمكن التعرف
على منازع عمر في السلوك من هذا النص ونحن نعتقد أن هذا النص
وأشبهه يصح أن يكون قاعدة عامة لقيادة السلوك البشري في مجال
الأخلاق وصدق العباس إذ يقول عن عمر وكان جارا له (ما رأيت
أحدا من الناس أفضل من عمر إن ليله صلاة ، وكون نهاره صيام
وفي حاجات الناس) .

لا عجب بعد ذلك أن يجعله الصوفية قبلة أنظارهم ومحيط
رحمهم في التأسى والافتداء في (ترك الشهوات واجتباب الشبهات
وإظهار الكوامل وقلة المبالاة من لائحة الخلق عند انصساب
الحق ، ومحق الباطل ، وسأرة الأقارب والأباعد في الحقسوق
والتمسك بالأشد من الطاعات) وحياته حافلة بالتقلب في العبادات
والطاعات والولايات . لحق بره شهيدا رضى الله عنه .

(١) الحلية لأبي نعيم ج ١ ص ٥٥ .

ويمكن تحديد معالم طريق الوصول إلى الله في نظر عمر — نسي
نقاط ثلاث: —

- أولهما : القيام بطاعة الله والالتزام الجاد بأداء الفرائض .
- ثانيهما : أن يجعل الفرد بينه وبين حرمان الله سدا متيناً
من المراقبة المستمرة بحيث يحول بين العبد وبين
الوقوع في المحظور .
- ثالثهما : الالتزام الموضوعي بالجهاد في سبيل إعلاء رايسته
هذا الدين والضرب على يد العابثين الذين
ينتهكون حرمان الله والإرشاد المستر إلى اتخاذ
المعروف سبيلاً للتعاون على البر والتقوى وتبذ
المنكر .

(عثمان بن عفان)

(ثابته القانت ذو النورين ، والخائف ذو الهجرتين -
والصلى إلى القبلتين ، هو عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه
فكان من هو قانت آتاء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو
رحمة ربه ، غالب أحواله الكرم والحياء ، والحذر والرجساء
حظه من النهار الجود والصيام ومن الليل السجود والقيام ، مبشر
بالبلوى ، منعم بالنجوى) (٣) .

ولقد وجد الصوفية فيه طلبتهم في التمسك والعبادة التي
بلغت فيه درجة عليا من التطور الروحي للعانى التي يؤمها الصوفية
من كرم وحياء ، وحذر ورجاء ، وتقلل من الدنيا والانشغال بالمعبود
الواجد بمداومة الصوم بالنهار والوقوف على أبواب الحق في نشأة
الليل حيث ينأى الناس في نوم عميق ويبقى هو مشغولا بربه يصلسى
له يطيل السجود مبتهلا إليه أن يؤمن غرته ويستر عورته ويقدم
كشف حساب دقيقا أفضى فيه بمكنون سره إلى ربه كل ذلك فسى
تتبع مستمر ولقد أكد ذلك المنهج الذي التزم به بقوله (أولهما -

التحبيب إلى الله بالتواقل ، ثانيهما - الصبر على أحكام الله
 ثالثهما - الرضا بتقدير الله ، وابعهما - الحياة من نظر الله

ولناظر في هذه العبارة يدرك إدراكا جازما أن عثمان بن
 عفان كان ملجأ حصيدا تحصن فيه الصوفية إذ جعلوا ملاذا لهم
 يفسرون بعباراته وتصرفاته ما يقومون به من مجاهدات ورياضات
 وما يترتب على ذلك من الكرامات التي تحدث لهم والإدراكات التي
 تتكشف لبصائرهم من العرش إلى الطغى ، فلا غواية بعد ذلك
 أن نسبح من أئمة القوم عبارات ملؤها الإعجاب والتعظيم والتناء على
 (جوهر كنز الحياء ، وأعد أهل الصفاء ، والتعلق بأعقاب الرضا
 والتمسك على طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم) (١).

ولقد أخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه سوف يتلقى
 فقد كان أبو بكر وصرا عثمان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ثم ذهبوا لبعض شأنهم فما إن وصلوا إلى جبل أحد حتى اهتز
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم " اثبت أحد فإني عليك صديق
 وشهيدان تلك إشارة خصه بها الرسول حيث أشار إلى ما سيقع
 لهذه الرفقة كما يرى أن عثمان دخل على رسول الله مشاؤنا
 فأذن له وبلغه بأن الله سيدخله الجنة لبلوى محبيه .

(١) كشيف المحجوب ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢

ومن أوثق ما يدل على تمكنه من نفسه وإرغامها على ما يريد الله
ورسوله ما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب فحث على تجهيز
جيش المعصرة فقال عثمان : على مائة بغير بأحلاسها وأقتابها
قال ثم حث فقال عثمان على مائة أخرى بأحلاسها قال ثم حث فقال
عثمان على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . فראيت النبي صلى الله
عليه وسلم يقول بيده يحركها : ما على عثمان ما عمل بعد هذا (١)

ومثله ما روى من أنه (قد أصاب الناس مجاعة في غزوة تبسوك
فأعثرى عثمان طعاما على ما يصلح المسكر وجهازه غيرا فنظروا
النبي صلى الله عليه وسلم إلى سواد مقبل ، فقال : هذا جمل أشقر
قد جاءكم بميرة . فأنهت الكائب فرفع رسول الله صلى الله عليه
وسلم يديه إلى السماء وقال : اللهم إني قد رضيت عن عثمان
فارض عنه (٢) وهاتين الواقعتين اللتين يذكرهما التاريخ بكل ثناء
واعتزاز تدلان على أن هذا الإمام الجليل كان يسخر ماله كي يكون
وسيلة إلى اكتساب رضا الله (عز وجل) كما أنهما تدلان على أن عثمان
كان مائلا لزمام نفسه كما ألحنا إلى ذلك آنفا يمكن أن نتعرف
تمام المعرفة على هذه المخصصة من مقالته التالية حيث قال رضي
الله عنه (وجدت الخير مجيئا في أربعة)

(١) الحلية لأبي نعيم عن ٨٥٧ هـ

(٢) العقد الفريد ص ٣٧ .

أولهما : التحبب إلى الله تعالى بالتواقل ، والثاني : الصبر
على أحكام الله تعالى ، والثالث : الرضا بتقدير الله عز وجل ،
والرابع : الحياء من نظر الله عز وجل (١) .

(أما اقتداء هذه الطائفة به في بذله المال والحياء والتعليم
في الأمور ، والإخلاص في العبادة . وهو على الحقيقة إمام حق في
الحقيقة والشريعة وطريقته في المحبة ظاهرة) (٢) جليلة ، ومما يدل
على ثبوته في مقام الرضا والتمكن والثبات والاستقامة أنه يوم قتل
(لم يبرح موضعه ، ولم يأذن لأحد بالقتال ولا وضع المصحف
من حجره إلى أن قتل (رضى الله عنه) وسال الدم على
المصحف وتلطخ بالدم ووقع الدم على موضع هذه الآية (فسبكهم
الله وهو السميع العليم) فرضى الله عن عثمان أحد المبشرين
بالجنة والذي مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض .

(١) اللع السراج الطوسي - ص ١٧٨

(٢) جليلة الأولياء لا يني نعم ص ١٥٥ ج ١

(على بن أبي طالب)

وسيد القوم (١) ابن عم المصطفى وغريق بحر البلاء ، وحررق
 نار الولاء وقدوة الأولياء والأصفياء (٢) راية المهتدين ونور
 المصلحين وولي العادلين ، أقدمهم إجابة وإيماناً ، وأعظمهم
 حلماً وأخبرهم علماً ، زينة العارفين المنى ، عن حقائق التوحيد
 على بن أبي طالب كرم الله وجهه (٣) وصفه ضرار بن حمزة فقال :
 (كان يقول فصلاً وحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق
 الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل
 ووحشته ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن . . . يعظم
 أهل الدين ، يحب المساكين ، . . . أعهد الله رأيت نفسي
 بعض موافقه وقد أرضى الليل سدوله ، وغارت نجومه يعيل في محرابه
 قابضاً على لحيته يتملئ تملئ السليم ، ويكي بكاء الحزين فكانت
 أسمعه الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا - يتضرع إليه - ثم يقول للدنيا
 اِلْمِي تَفَرَّزْتِ إِلَيَّ تَشَوَّفْتِ ، هيهات هيهات ، غري غري قد
 بَتَّتْ ثَلَاثًا فَعَمِرَكَ قَصِير ، ومجلسك حقير وخطرك يسير آه مسن

(١) كشف المحجوب ص ٢٧٣

(٢) حلية الأولياء ص ٦١ ج ١

قلة الزاد ، وبعد السفر وحشة الطريق (١) .

ولقد خص أمير المؤمنين على رضى الله عنه بمعان شريفة
ولها مآلات لطيفة وعبارات فى بيان التوحيد والمعرفة والإيمان
والعلم وغير ذلك ، هذه الخصائص جعلته قبله أنظار الصوفية
ومحط أرواحهم فى التأمل والاعتناء إلى حد أن قال الجنيد عنه
(إنه شيخنا فى الأصول والبلاء)

يوجد الصوفية مراميهم ومعانيهم فيما تركه على من توارث
مكتوب يشرح فيه ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث
يجعل المفاهيم الصوفية كيانا واضح المعالم إذ يتحدث عن الصبر
واليقين والجهاد والعدل أركاناً للبناء الإسلامى فينقل عن النبى
أن الإسلام (بنى على أركان أربعة الصبر واليقين والجهاد
والعدل ، وللصبر أربع شعب الشوق والشفقة والزهادة والترقب
فمن اعتنق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار
رجع عن الحرمان ومن زهد فى الدنيا تعاون بالمصيبات ومن ارتقب
الموت سارع فى الخيرات واليقين أربع شعب تهصرة الفطنة وتأويل
الحكمة ، ومعرفة العبرة ، واتباع السنة فمن أبصر الفطنة تأول

(١) المصدر السابق ص ٨١ ط ٨ .

الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة اتبع السنة
 ومن اتبع السنة فكأنما كان في الأولين وللجهاد أربع شعب : الأمر
 بالمعروف ، والنهي عن المنكر والصدق في المواطن ، وشنآن
 الفاسقين ، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المومن ومن نهى عن
 المنكر أرغم أنف المنافقين ، ومن صدق في المواطن قضى السدى
 عليه وأحرز دينه ومن شنأ الفاسقين فقد غضب لله ومن غضب لله يغضب الله
 له وللمعدل أربع شعب : غص القهم ، وزهرة العلم ، وشرائع
 الحكم وروضة الحلم فمن غاص القهم فسر جبل العلم ومن وهى زهرة
 العلم عرف شرايع الحكم وورد روضة العلم ومن ورد روضة الحلم لم
 يفرط في أمره وطاش في الناس وهم في راحة (١) .

فلا غرابة في أن الصوفية يقتدون به في حقائق العبارات
 ودقائق الإشارات والتجريد عن معلوم الدنيا والنظر في تقدير
 الحق (٧) .

فنظر إلى تلك الإشارات وتلك اللطائف التي سنعرضها في
 السطور التالية تدل على أنه كان إماما يقتدى به في هذا اللون

(١) الحلية لأبي نعيم ص ٢٧٤ ، ج ١

(٢) كشف المحجوب ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

من الرياضة الروحية إذ كانت أقواله رضى الله عنه متطابقة مع أعماله والنص التالي يدل على صدقه في وصف وفد الرحمن الذين هم المتقون العابدون الزاهدون الذين نبذوا الدنيا واتجهوا بكل كيانهم إلى مراقبة ربهم طمعا في ثواب الآجلة ونبذوا للعاجلة

قال رضى الله عنه إجابة على سؤال من سأله أن يصف له المتقين فقال (المتقون هم أهل الفضائل منطبقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ، وشيتهم التواضع ، غصوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء ولولا الأجل الذي كسب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى السى الثواب وخوفا من العقاب عظم الخلق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم ، قلوبهم محزونة وشروهم مأمونة وأجسامهم نحيفة وحاجاتهم خفية وأنفسهم غيفة ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم فقد وأنفسهم منها)

أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن ، يرتلون ترتيلا يحزنون به أنفسهم ويستغيثون دواء داءهم ، فإذا مروا بآية فيها تعويق ركعوا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها شوقا وظنوا أنها نصب أعينهم وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها

مسامح قلوبهم وظنوا أن زعيم جهنم وشهيقها في أصول آذانهم وأما
النهار فحكاه علماء ، أبرار أتقياء قد براهم الخوف برى القداح (١)

ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض (٢) ويجمع
حقائق القوم ومقاماتهم في العبارة التالية إذ يقول (الخير كله
مجموع في أربعة : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل ينطق
لا يكون في ذكر الله فهو لغو ، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو
وكل نظر لا يكون في عبادة فهو غفلة وكل حركة لا تكون في تعبد الله
فهو فتنة ، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره
عبادة وحركته تعبدا يصلح الناس من لسانه هذه (٣) .

وتبلغ التقوى كمالها حين يصل العبد إلى مرتبة الزهد
وإذا تحدثنا عن الزهد في الدنيا وتجنب الملذات العارفة عن
التدبر والتفكير فيما وراء العالم المادي المحسوس فإننا نجد الإمام
عليه السلام قد ضرب بسهم وأفرق في مجال الزهد إذ يقول (طوبى
للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة أولئك قوم اتخذوا الأرض

(١) القداح جمع قدح الكسر قيل أن يراى وراء نحتة أى رتق
الخوف أجسامهم كما ترقق السهام بالنحت .

(٢) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ شرح الصفيح
محمد عبده تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

(٣) الملح ص ١٨٠ .

بساطا وترابها فراشا وماءها طيبا ، والقرآن والدعاء دشارا
وشمارا (١) فعلى المسلم أن يكون دائم المراقبة لله بحاسبة
النفس على ما يصدر عنها من أفعال ذلك لأن (الدنيا لا يدوم
نعيمها ولا تؤمن فجاجتها • غرور حائل • وشبح قائل وسناد مائل

اتعظوا عباد الله بالعبر واعتبروا بالآيات والآثر • وأزجسروا
بالنذر وانقعوها بالمواظ فكان قد غفلتكم مغالب النية • وضكم
بيت التراب • ودهنتكم مقطعات الأمور بنفخة الصور • ومعشرة
القبور • وسياقة المحشر وموقف الحساب بإحاطة قدرة الجبار
كل نفس معها سائق يسوقها لمحشرها • وشاهد يشهد عليها
بعملها (أشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين
والشهداء ونفس بهمهم بالحق وهم لا يظلمون)) (٢)

ويعتقد الصوفية أن عليا صاحب خصوصية امتاز بها عمن
سبقه من الخلفاء فقد وهبه الله العلم اللدنى يقول الإمام
الجنيد شيخ الطائفة عنه أنه (لولا اشتغاله بالحروب لأفادنا

(١) الحلية لأبى نعيم ص ٢٩ ج ١

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨ ج ١ •

من علمنا هذا معاني كثيرة ذاك امرؤ أعطى العلم اللدني ، والعالم اللدني هو العلم الذي اختص به الخضر .

قال تعالى " وعلّمناه من لدنا علماً " (١)

لهذا يجد الصوفية قبلتهم وطلبتهم في الإمام علي كرم الله وجهه وبالجملة فإن الخلفاء الأربعة كانوا أساساً لنزاع الصوفية وشاربهم فكل قد تحدث عما يحسن ويصدق الصواب الذي يأخذ منه في وجد معين (فمن ترك الدنيا كلها وخرج من جموع ما يملك وجلس على بساط الفقر والتجريد بلا علاقة بإمامه فيه أبوك ومن أخرج بعضها وترك البعض لعياله واصله الرحم وأداء الحقوق وإمامه فيها عبرين الخطاب ومن جمع الله ومنع الله وأعطى الله وأنفق الله وإمامه عثمان بن عفان ومن لا يحرم حول الدنيا . . . وإن جمعت عليه من غير طلبه ، رفضها وهرب منها وإمامه في ذلك على ابن أبي طالب (٢) .

(١) السراج الطوسي، الملح ص ٣٢٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٢ .

(أبو ذر الغفارى)

وإذا نحن نتحدث عن الينايع الأولى التى استند بنيتها
 الصوفية مذاقاتهم وألوان علومهم وفهومهم تبرز شخصية
 أبى ذر الغفارى كعلم من أعلام هذا اللون من التدوى والزهد
 لما عرف من الزهد فى الدنيا والإعراض عن زخارفها وزينتها
 واحتراق قلبه بنار الندم على ما يمكن أن يكون قد لحق به من
 تقصير ، فلقد أضى عمره كله والدنيا وراء ظهره متخليا عنها ناظرا
 إلى ما ينتظره من العقبى متحلا بمختلف صنوف البلاء وظل كذلك
 حتى لحق بمولاه ولقد برزت هذه الشخصية كمحور للتصوف هدى ما
 وقف فى وجه معاوية وحده معلنا استنكاره الفديد لما دأب نفسى
 أوصال الدولة من ترف محذرا إياه من أن ذلك يؤدى مآلا
 إلى خراب الدولة عندما تتركز هذه الأموال فى أركان الدولة
 ووجهاها فيؤدى ذلك إلى الاكتناز الذى حرمه القرآن بقوله
 " والذين يكتزون الذهب واللغة ولا ينفقونها فى سبيل الله
 فيعذبهم عذاب أليم " (١) .

(١) سورة التوبة الآية (٣٤) .

على حين أن معاوية يرى أنها نزلت في أهل الكتاب
بينما يرى أبو ذر أنها طامة تشمل كل كافر سواء أكان من أهل
الكتاب أو من المسلمين .

ولقد كان أبو ذر دهشا من الحال الذي وصل إليه
الأمويون مثلين في معاوية الذي كان واليا على الشام من قبل
عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولنسمع إلى أبي ذر إذ يصور
زهده في الدنيا بقوله (والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى
نساءكم ولا تقاررتن على فريحتكم والله لو ددت أن الله عز وجل خلقني
يوم خلقني شجرة تمضد ويؤكل ثمارها) (١) .

ومن هذا المنطلق كان أبو ذر يحتقر الكافرين الجامعين
للمال باعتبار أن الحساب يوم القيامة عسير على أولئك الذين عطلوا
الآمال ولم ينفقوه في سبيل الله وحتى عندما تيسر لديه فائض مال
رفض أن يذخر ما زاد عن حاجته متذكرا عهد رسول الله إليه قائلا
إن خليلي عهد إلى أن أى مال من ذهب أو فضة أوكى عليه
فهو جبر على صاحبه إلى أن ينفقه في سبيل الله (٢) .

(١) الزهد: أحمد بن حنبل ص ١٤٠ .

(٢) الزهد: أحمد بن حنبل ص ١٤٠ .

ولقد كان يتحجب معاوية في غدواته وروحاته مشددا النكير
عليه مذكرا بإياه أن الدنيا معبر إلى الآخرة .

وأمام هذا الإلحاح والإصرار من أبي ذر الغفاري خُصِفَ
معاوية على ولايته أن تتمزق أو أن يشغب عليها بعض الثائرين من
أطرافها فكتب إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه يشرح لـه
موقف أبي ذر منه وجاء الرد مسع البريد أرسله إلى المدينة ولقد
وصل أبو ذر إلى المدينة ودار بينه وبين الخليفة هذا الحوار
الرقيق الذى يعرض فيه عثمان رضى الله عنه على أبي ذر الإقامة
عنده حيث تغدو عليك اللقائم وتروح، فرفض أبو ذر هذا العرض ثم
عرض أن يقيم في خلوة عرف الإقامة فيها يوما ما . تلك هى الرتبة
فغادر المدينة إليها بناء على طلبه درءاً لفتنة واتقسام .

ونحن نثبت هذا الحوار متعمدين لكي يكون فيه رد على أولئك الذين حاولوا الإيقاع بين المسلمين بصورين الخليفة الثالث رضى الله عنه صورة فيها عيب وتجب إذ حاولوا أن يشبوا أن عثمان رضى الله عنه قد عامل أبا ذر بغلظة وجفاء وأرضه على أن يذهب إلى النقي الذي حدد له . والتهار السذى يتحس لهذا الرأى هو اليعقوبى . ومن هنا نحوه حيث زعم أن أبا ذر كان معترضا على النقي بحجة أنه عاقد بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم (المدينة) فقال عثمان له ستخرج وأنفك راغم) وهذا بالطبع لا يتناسب مع ما عرف عن الخليفة الثالث من هدوء واتزان وخلق فاضل ولكن الحق أن الخليفة عندما استدعاه تلمظ في حديثه معه ودار بينه وبينه الحوار التالى :-

(دخل أبو ذر على عثمان مستثدنا في الذهاب إلى السى
الربذة فقال عثمان نعم وتأمر لك بنعم من نعم الصلات
تغدو عليك وتروح قال لا حاجة لى في ذلك علكى أبا ذر
صرته ثم قام فقال اعزموا دنياكم ودعونا وربنا ودیننا) (١) .

(١) انظر اليعقوبى ، والحلية لأبى نعيم ص ١٦٠ ج ١ .

وذهب إلى منفاه وهناك أفضى ببقية عمره متفرغاً للعبادة زاهداً
في الدنيا حتى أصبح علماً على الزهد والرياسة الروحية .

وقد اشتهر — رضى الله عنه — بالمواظبة التي تأخذ بمجامع
الألباب وتستولى على المشاعر فمنها قوله : (يا أيها الناس هلموا
إلى الأخ الناصح الشفيق ، فاكتفه الناس فقال : أرايتم لسو أن
أحكم أراد السفر أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟ قالوا
بلى قال : فسفر يوم القيامة أبعد ما ترون فخذوا منه ما يصلحكم
قالوا . . . وما يصلحنا ؟ قال . . . حجوا حجة لعظام الأمور ..
صوموا يوماً شديداً حره لطول النشور . . . صلوا ركعتين في سواد
الليل لوحدة القبور . . . كلمة خير تقولها . . . أو كلمة — — —
تسكت عنها لوقوف يوم عظيم . . . تصدق بمالك لعلك تجو من
عسرها . . . اجعل المال درهمين . . . درهما تنفق على عيالك
من حله . . . ودرهما تقدمه لآخرتك والثالث . . . يضررك ولا ينفعك
لا تريد . . . ثم نادى بأعلى صوته . . . يا أيها الناس . . . قسند
قتلكم حرص لا تدركونه أبداً (١) .

(١) الحلية لأبي نعيم ص ١٦٨ ج ١

ولقد أفادته ملازمته للرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا حيث
سأل الرسول عن كل شيء من الأصول والفروع ، والإيمان والإحسان
وقد كانت الخلوة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم
تفكه من أن يدبر حوارا بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم

فكان يطلب أن يضع له دستوراً في الحياة العلمية يقتدى
بها في الطريق الموصلة إلى الله فكثيرا ما كان يطلب الرخصة من
رسول الله ولا يكتفى برخصة واحدة بل كان يلح في طلب المزيد
حتى يكون قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم
القيامة. والنص التالي يشرح لنا مدى الطال التي كان عليها
أبو ذر رضى الله عنه قال :

قلت يا رسول الله أوصني . . قال : أوصيك بتقوى الله
لأنه رأس الأمر كله قلت يا رسول الله زدني : قال عليك بتسلاوة
القرآن فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء قلت يا رسول الله
زدني قال : إياك وكثرة الضحك فإنه يهتت القلب ويذهب بنور الوجه
قلت يا رسول الله زدني قال : عليك بالصمت إلا من خير فإنه
مطرودة للشيطان عنك وعن لك على أمر دينك قلت يا رسول الله
زدني قال : انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك فإنه
أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك قلت يا رسول الله زدني : قال

يردك عن الناس ما تعرف عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتي
وكفى به عيا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك أو تجد عليهم
فيما تأتي ، ثم ضرب بيده على صدره فقال (يا أبا ذر لا عقل كالتيه
وروز كالقف ، ولا حسب كحسن الخلق) (١) .

واستمر الزهد سيطرا عليه طول حياته إلى أن قضى نحبه
في الربرة دون أن يجد ثوباً له أو لزوجه لتكفنه فيه .

تذكر المراجع أن أبا ذر حين حضرته الوفاة اشتد بكاء
امراته ، فسألها في لطف لم تبكين ؟ والموت طريق المؤمنين إلى
الآخره فأجابته إنني لأخاف الموت ولكن الطال التي وصلنا إليها
قد بلغت من الشدة مبلغاً لا تمكنا من أن نجد كفناً لك وهننا
أخبرها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له ولنفر معه (المؤمنين
منكم رجل بفلاة من الأرض فتشبهه عصابة من المؤمنين وليس من
أولئك نفر رجل إلا وقد مات في قرية أو جماعة من المسلمين
وأنا الذي أموت بفلاة) وأمرها أن تلقى بنظرة على الطريق لعلها
تجد ركبا يعينها في هذا الشأن ما هي إلا ساطت قد مسرت
حتى وجدت جماعة من المسلمين كشفت لهم حاجتها فاستجابوا لها
فدخلوا على أبي ذر فأخبرهم بمقالة النبي صلى الله عليه وسلم

فابتدوهم بقوله لا يكفني رجل منكم كان في موقع من مواقع السلطة
يوماً ما . فرد عليه فتى أنصاريٌّ بأن تلك المطالب قد توفرت فيه
ثم بإشرافه مهتمه باتفق أن تكون الصحابي الجليل عبد الله
بن مسعود ما را فاطان الفتى على دفن صاحب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ورثاه يقول :

(أخي وخليلى ، طاش وحده ومات وحده وبيعت وحده
طويلى لـــــــه .)

(عبد الله بن مسعود)

ومن شخصيات الصحابة الأجلاء الذين كانوا حصناً للصوفية يحتمون بهم ويأخذون عنهم عبد الله بن مسعود الهذلي السدي كان سباقاً إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، بسبل تستطيع بلغة العصر أن نسميه سفيراً ينقل الدعوة إلى الذين حاولوا أن يصيروا آذانهم عنها فقد كان رضى الله عنه يطاول في إصرار أن يسمعهم القرآن رغم علمه بأنه سيلقى عنقا كثيراً منهم. قال ابن إسحق: (كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط فمن رجل يسمعه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا. قالوا - إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلاً لسه عشرة يمنعونه من القوم إن أرادوه قال : دعوني فإن الله سينعني ، قال ففدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أند يشها حتى قام عند المقام ثم قرأ "بسم الله الرحمن الرحيم - رافعاً بها صوته: الرحمن علم القرآن قال ثم (بدأ) يقرؤها قال : وتأملوه فاحملوا يضربون وجبهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أشرف على وجبهه

فقالوا له هذا الذي خشينا عليك فقال ما كان أعداء الله أعون على
منهم الآن ولئن شئتم لا تأخذ منهم بشئها غدا قالوا لا حسبك
قد أسعفتهم ما يكرهون (١).

ولقد كان لابن مسعود صولات وجولات في كتاب الله كأن
يخلو فيها إلى نفسه مناجيا ربه مما تلا إياه حاجته فمن علقمة
(قال جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال يا بني جئتك من عند
رجل يملأ الصحف عن ظهر قلب ففزع عمر وغضب وقال : ويحك انظر
ما تقول، قال ما جئتك إلا بالحق قال : من هو قال عبد الله بن مسعود

قال ما أعلم أحدا أحق بذلك منه وسأحدثك عن عبد الله
إننا سمعنا ليلة في بيت عند أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة
النبي صلى الله عليه وسلم ثم خرجنا ورسول الله صلى الله عليه
وسلم - يجمع إليه فقلت يا رسول الله أعتت فغمرني بيده : اسكت.
قال : فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر فقال النبي صلى الله
عليه وسلم (سل تعطه) . . . ثم قال من سره أن يقرأ القرآن رطبا
كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد " (٢).

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٣٣

ص ٣٣٧ ط ١ التحرير .

(٢) الحلية لأبي نعيم ص ١٢٤ ج ١ .

ومن أقواله في تعظيم القرآن والعناية به (إن هذا القرآن
مأدبة الله فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل فإن أفسر
البيوت من الخير ، الذي ليس فيه من كتاب الله شيء وإن البيت
الذي ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا مبراه (١) .

وما أجمل تعبيره عن القلوب التي حوت القرآن وأنت به
فقد اعتبر هذه القلوب أوعية نقية يقول - رضى الله عنه (القلوب
أوعية فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره) (٢) .

ومن أقواله الدالة على حبه للقرآن وخوفه من الله وخشيته
منه قوله (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إن الناس نائمون
ونهاره إن الناس يفترون ويحزنه إن الناس يفرحون وينبغى
لحامل القرآن أن لا يكون جافيا ولا غافلا ولا صخابا ولا صياحا ولا حديثا) (٣).

ويحث الناس على العمل الصالح ونبه الدنيا وأطرافها
والعمل لما بعد الموت الذي هو أمر حتى لا غصم منه في مثل قوله
(إنكم في مر الليل والنهار في آجال متقوطة وأعمال محفوظة

(١) المصدر نفسه ص ١١٣ ج ١

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠ ج ١ .

والموت يأتي بغتة ، فمن يزرع خيرا يوشك أن يحصده رغبة ^(١) ومن يزرع شرا يوشك أن يحصد تدامة ولكل زارع مثل ما زرع لا يسبق بطنى ، يحظه ولا يدرك حرم ما لم يقدر له فمن أعطى خيرا فالله تعالى أعطاء ومن وفى شرا فالله تعالى وقاه . المتقون سادة والفقهاء قادة وبجالستهم زيادة ^(٢) .

وما نستطيع تحصيله من هذا النص أن اتجاء ابن مسعود في العبادة يقوم على الحقائق الآتية :-

١ - إن الدنيا ليست محتدا يتكئ عليه فهو دائرة بين أجل منتهى وعمل مكتوب ومن ثم يجب على الإنسان أن يدفع الغفلة عن نفسه ولا يفرق في شهورات الدنيا بل يكون زاهدا فيها .

٢ - إن الدنيا هي مزرعة يتم حصادها في يوم الحساب عند البعث ومن ثم فلن للعمل أهمية كبرى في ميزان العبد يوم القيامة ولأنه بهذا يستحضر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (الناس مجزون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر) .

(١) الصد ر نفسه ص ١٣ ج ١
(٢) حلية الأولياء لأبي نعمان ص ١٣٤ ج ١ .

٣ - لا يصلح حال المجتمع إلا بتقوى الله والمقته في دينه وبهذا
يتكون المجتمع الطاهر النقي .

- ولقد كانت وصاياه ومواعظه مطبوعة بطابع الأخلاق حتى لتحسن
وأنت تستمع إلى تلك المواعظ أنك أمام أستاذ معلم يضع منهل
الأخلاق والسلوك لمجتمع يراد له أن يصل إلى قمة الكمال فسى
التربية والسلوك ما ذاك إلا لأنه وضع لنفسه نهجا ما يهتدى به
وقدوة حسنة يقتدى بهلها كانت قدوة لا بمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله .

والنص التالي يعطينا الدليل على ما قلناه : قال ابن مسعود
موجها الحديث إلى المجتمع المسلم طالبا منه حسن العمل
والاقتداء بهدى النبي قال :

إن أشرف الحديث ذكر الله ، وخير القصر القرآن
وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وما قل
وكفى خيرا ما كثر وألهى ، ونفس تجيبها خير من
أثمارة لاتحصى ، وشر العذيلة حين يحضر الموت
وشر الندامة ندامة القيامة ، وشر الضلالة الضلالة
بعد الهدى ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير
الزاد التقوى ، وخير ما ألقى في القلب اليقين والرب

من الكفر ، وشر المعى على القلب . ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبراً ، ولا يذكر الله إلا هجراً وأعظم الخطايا الكذب ، وسباب المسلم فسوق وقتاله كفر ، وحرمة ماله كحرمة دمه . ومن يحلف يحلف بالله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ومن يغفر يغفر عنه الله له ، ومن يصبر على الرزية يحفيه الله ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر الآكل مال اليتيم والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من شقى في بطن أمه ، وإنما يكفى أحدكم ما قضت به نفسه ، وإنما يصبر إلى أربعة أذرع والأمم إلى آخره ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الرأيا رأيا الكذب ، وأعرف الموت قتل الشهداء ومن يعرف البلا يصبر عليه ومن لا يعرفه ينكر ومن يستكبر يضعه ومن يتولى الدنيا تمجز عنه ومن يطع الشيطان يحض الله ومن يحض الله يحذبه (١) .

(١) الحلية لأبي نعيم ص ١٣٨ ، ٢٣٩ ج ١ .

وهكذا كان ابن مسعود كلفاً بإصلاح المجتمع قريبا من الله
 عز وجل صاحب ملكة قوية في مراقبة الله وإتقان العمل ولذا استحق
 أن يكون إمام أولئك الزهاد ومحط رحالهم في الاقتداء والاهتداء
 وطلب الحقيقة العليا .

* سلمان الفارسي

ومنهم كذلك الصطبي الجليل سلمان الفارسي الذي عرفته
الإخلاص في العبادة والزهد في متع الحياة الدنيا .

يحدثنا التاريخ بأنه كان موضع تنازع شديد بين أهل السنة
والشيعة نظرا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم (سلمان مني
أهل البيت) لكن الطرفين متفقان على أنه قطع شوطا طويلا في
مطولة البحث عن إجابة لهذا السؤال : أين الحق ؟ وما طريق
الوصول إليه ؟

ولاشك أن معرفة الإجابة قد استغرقت وقتا طويلا منذ كان
وثيقا فارسيا ، فباحثا عن الحق في ضوء المسيحية ، حتى من الله
عليه بالإسلام ، يذكر ابن هشام وغيره أن سلمان الفارسي كان ذاربا
عالية في الجوسية حيث عمل خادما للنارثم اضطرت الظروف إلى
ترك خدمة النار مؤقتا لبعض شأن أبيه فمر بأحدى كنائس النصارى
فسمع صلاتهم ووقع من نفسه موقعا حسنا حيث كانت تختلف من
عبادته وعبادة آبائه ولما عاد كثر أباه فيها حدث له من تأثير شديد
بطاين وسمع فاستخدم أبوه كل الوسائل لينضمه من أن يبرح البيت
خوفا عليه من الدخول في المسيحية التي تتعارض تماما مع طقوس

الفرس ومعتقداتهم وأعمل سلمان الحيلة في الهرب بغية الوصول إلى طلبته فألقى بركب متجه إلى الشام بقصد البحث عن أصول النصرانية. وما إن وصل إلى هناك حتى دله على أفضل علمائهم معرفة بهذا الدين فذهب إليه من قوره ومارحه بأمره وبقى معه إلى أن تفرغ، ثم رحل إلى الموصل قاصداً أفضل علمائها بالنصرانية فقصى فيها زمناً إلى أن قبض أيضاً ثم انتقل إلى بلدة نصيبين متخلفاً إلى أحد رهبانها يتلقى عنه علم النصارى حتى حضرته الوفاة واستشاره فأشار عليه أن يذهب إلى بلدة عمورية بأرض الروم فحدد له أحد رهبانها فأقام معه سلمان مدة وما إن أحسن بدنو أجله حتى طلب أن يحمده به إلى آخر فحدته بعدم استطاعته تنفيذ ذلك الطلب حيث قد تغير الزمان وشغل الناس بديناهم وسكت هنيهة ثم قال إنه (قد أطل زمان نبى ٠٠٠٠٠) من الآلات الدالة عليه (يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ومن كفيه خاتم النبوة فـسـلـان استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل)

وعلى الفور أخذ سلمان يتمرف على الوسائل التي تضمن له الوصول إلى أرض يعرفها بأوصافها ليبحث فيها عن نبى يعرفه بهناته واستغرق ذلك منه جهداً ضخماً وتعباً أكيدا ومعاناة

أذاعته ذل العبودية •

وصل سلمان إلى المدينة طاملاً بها رقيقاً في أسر سيده اليهودي كل ذلك ومحمد صلى الله عليه وسلم بمكة لا يسمع سلمان عن أمره شيئاً ثم استرق سمعه حديثاً دار بين سيده وأحد أقربائه عن النبي صلى الله عليه وسلم - فأذهلته المفاجأة وطفق يستبين أمر هذا المهاجر الذي استقر بالمدينة وأزمع في نفسه أن يستوضح أمارته التي أخبره بها قس عسيرة يقول سلمان (فلما أُمييت ذهبت إلى المكان الذي أقيم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إني قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لسك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء قد كان عندى للصدقة فلوأيتكم أحق به من غيركم قال فضربت إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا وأمسك يده فلم يأكل قال : فقلت في نفسي : هذه واحدة) ثم جئت إليه بعد زمن لم يطل (وقلت له : إني قصد وأيتك لأأكل الصدقة فهذه هدية أكرمتك بها ، قال فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه فأكلوا معه ، فقلت في نفسي هاأنا ثنتان) ثم تأملت النبي صلى الله عليه وسلم بعد زمن وحوالت البحث عن (الخاتم الذي وصف لي صاحبي ، فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرته عرف أنني أستتبت في شيء ووصف

لى فالتقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكبت عليه
أقبله وأبكى قال سليمان ثم قال لى رسول الله صلى الله
عليه وسلم - كاتب يا سليمان فكاثبت صاحبه على ثلثا ثمة نخلينة
وأربعين أوقية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه
أعينوا أخاكم فأطعنوا بالنخل فقال لى رسول الله صلى الله عليه
وسلم اذهب يا سليمان فاحفر لها فإذا فرغت من الحفر فإبنى أضعاها
بيدى فلما فرغت جثته فأخبرته فجعل رسول الله صلى الله عليه
وسلم يخرسها بيده فوالذى نفس سليمان بيده ما ماتت منها
فأدبت النخل حتى المال ، ثم أعطانى رسول الله صلى الله عليه
وسلم بوضة من ذهب فقالت وأين تقع هذه يا رسول الله ما على ؟
فقال خذها فإن الله سيؤدى بها عنك فأوفيتهم حقهم
منها (١) .

ولقد صور صاحب الحلية كلاحه فى الإسلام أبدع تصوير حيث
قال هو (الحكيم والمبايد العلم وابن الإسلام رافع الألهية
والأعلام أحد الرفقاء والتجباء وإليه تشتاق الجنة من الغرباء ثابت
على القلة والعداء لما نال من الصلة والزوائد) (٢) .

(١) سيرين هشام تحقيق محمد محى الدين عبد الصمد ص ٢٣ ، ٢٤١
وانظر طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٢١٨ والحلية لابن نعيم ج ١ .

(٢) الحلية ، لأبى نعيم ص ١٨٥ ج ١ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (السابق أرحم : أنا سابق
العرب ، صهيب سابق الروم ، سلمان سابق الفرس ، بلال سابق
الحشة) (٧) .

أما زهدنا في الدنيا فقد طبقت شهرته الآفاق كان فيه مضرب
المثل فقد كان عزوا عن الدنيا مقبلا على الآخرة طافدا العزم على
تحري الأمور التي كان يأمر بها محمد رسول الله صلى الله عليه
وسلم متجنباً كل ما ينهى عنه تبعاً لامتداد عايزون عنه مقالات كثيرة
نورد بعضها علنا نستطيع أن نترك في ذهن القارئ انطباعات
خاصة عن هذا الصالح الجليل الذي قال عنه رسول الله صلى الله
عليه وسلم (إن الجنة تنطاق إلى ثلاثة على : هـ وهارء وسلمان)
(٨) ذلك لما بذلوه في طريق الله والخير والعبادة من جهـد
استحقوا عليه ذلك الثناء والمظيم من الرسول صلى الله عليه وسلم
ومن أصدق الأدلة على ذلك أنه لما حضرته الوفاة جعل يركب
فقال له يا أبا عبد الله ما يهيكك ؟ أليس فارقت رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو عنك واغترقت في الله ما في جزع الموت ولكن رسول الله

(٧) رواه أبو نعيم عن أنس .

(٨) رواه الترمذي عن أنس .

صلى الله عليه وسلم عهد إلينا عهداً : " ليكن مثاع أحدكم من الدنيا كزاد الراكب) (١) .

وكان رضى الله عنه يقول : عجبا لمؤمن الدنيا والموت يطلبه
وفاقر ليس بمغفول عنه وضاحك ولا يدرى أرببه وأرض عنه أم سخط (٢)

ومثل حال المؤمن في الحياة الدنيا بحال مريض (معه طبيبه
الذى يعلم داءه ودواءه فلذا اشتبه ما يضره منه وقال لا تقربسه
فإنك إن أصبته أهلكك ولا يزال يئمه حتى يبرأ من وجعه وكذا لسك
المؤمن يشتغى أشياء كثيرة ما فضل به فخره من العيش فيئمه الله
إياه ويحجزه عنه حتى يتوفاه فيدخل الجنة) (٣) .

وهل المؤمن أن يلزم الصمت فيما لا يعنيه وإن أكره الناس
ذنباً يوم القيامة أكرههم (كلاماً في معصية الله) (٤) .

والذى يعنيننا من هذه النصوص التى أوردناها آنفاً أنها
تقتل على دراسة تحليلية لشخصية هذا الصطبى الجليل الذى
أبغى طوال حياته باحثاً عن الحق زاهداً فى المتع التى يبين

(١) الحلية لابن نعيم ص ١٦٦ ج ١ .

(٢) الطبقات الكبرى للشعزائى ص ٢٤٢ و ٢٤٣ ج ١ ط الجليل .

(٣) الحلية لابن نعيم ص ٢٠٧ ج ٢ .

يدى الناس يدركا ان هذا المتع هو عطية من الله اليهم وهى
 كذلك ظل لا يستطيع ان يد المستظلي * بانسان ليس من طبيعته
 ان يدوم ، شأنه فى ذلك شأن الدنيا التى هى ظرف لذلك المتع
 العارض وأن على العاقل ان يستند الى الباقي دون الغائى
 ومن ثم عرف سلمان (رض) عنه بالعالم الزاهد بدهاءه من الحياة التى
 كان يحمل فيها غنيسها من عمل يده كزجاج للنخل جانبها للشارشم
 وصولا الى امير الدائن وهنا ارتفع دخله حتى اصبح خمسة آلاف
 درهم كان يعتمدق بها جميعا دون ان يتبقى منها شيئا رغبة فيما
 عند الله ورغبة من اكتناز الدنيا والدهر مع ذلك كان زاهدا
 يوفق بين مطالب الروح ومطالب البدن فلم يكن زهده اعتدافا فسى

الرياضة الروحية بحيث ينسى نصيبه من الدنيا ولكنه كان زاهدا للتسببه من الاسلام
 خاتم الاديان ولذبح البرهان بعد أن استبان الامر وادرك أن الفوز الباقي
 التى قضى بها باحتمال الحقيقة التى قد توجب بالاسلام الذى يريد انه لا يبر من التوفيق بين

حاجة الروح وحاجة البدن يبرون انه ذهب الى صديقه وأخيه
 أبا الدرداء فمر من امره انه يصوم دهره ويقوم ليله فى صليبه
 مستوره بقصد اخضاع النفس وتهدئتها فاستكر ذلك منه قائلا (ان
 لنفسك عليك حظا ولربك عليك حظا وأن لنفسك عليك حظا وأن لأهلك
 عليك حظا فاعط كل ذي حق حقه) .

وهكذا لم يتأثر بمبادئه القديمة التي نشأ في محضها طفلاً
 منتقلاً إلى المسيحية في طور من أطوار حياته دارساً ثم باحثاً
 ومحللاً فقد تخلص من هذه الآثار بالإسلام الذي اعتنقه نظرياً وعاملاً
 ووضعت لديه الحجة وظهرت الكلمة واكمل البرهان .

وظل هذا العابد الناسك التقي الورع طوال حياته على هذا
 النهج إلى أن أدركته منيته في خلافة عثمان رضي الله عنها دون أن
 نسيح أنه زج بنفسه في أتون الفتنة التي ظهرت في عهد الخليفة
 الثالث - رضي الله عنه - وقد ترك في مجلات التاريخ صورة واضحة
 المعالم لهذه الشخصية التي قدمت للإسلام كل معارفها في دافع
 هذا الدين إلى الأمام حتى تتطلق الكلمة بغير حدود تدبر في
 طريقها ما أقامه المجتمع الوثني من أباطيل وأهام .

(أبو السدرداه)

وهذا أبو الدرداه نموذج من النافذ الكثرة التي اشتهرت
بالزهد والورع والخوف من يوم الحساب .

يذكر ابن سعد في طبقاته أن أبا الدرداه إنما بلغ ما بلغ بسبب توافر
صفات عدة تجعله في المرتبة الأعلى وال مقام الأسس في العبادة
والزهد فهو فارس اشتهر بالفروسية وشارك النبي صلى الله عليه
وسلم في بعض فرائده وأبلى بلاءً حسناً وهو كذلك طالم بالأصول
والفروع . وهو بسبب العلم والعمل يحد من عليه الصلابة وكبرائهم
وقد تخصص في رواية الحديث ينقله عن النبي صلى الله عليه وسلم
ذلك إلى أنه من أهل التوبة^(١) كما يحبر ابن سعد نفسه وليس
يقصد بهذا التعبير شيط غير التمتع في الروح والإغراق في التدقيق
وما ينشأ عنها من أفهام ومنازع تزعم صاحبها على تصفية النفس
وإبعادها عن الوطء الجسد الذي يتطلب إشباعاً مادياً خاصاً

ومن ثم تتخلص النفس من مطالب الحس وبغايه فتصفو من الكسدر
وإن ذاك تمهيد إلى ربها وتساعد سعادة لا يحسبها أصحاب المنازع

(١) الطبقات لابن سعد ص ٣٩٢ ج ٧ .

المادية • فكانت مجادته تدبرها واعتبارها • يدل على ذلك قوله
(تفكر ساعة خير من قيام ليلة) (١) .

وهذا يخفى أن أبا الدرداء وجه كل غاية إلى تطهير القلب
فأسكنه الإخلاص وأبعد عن الرياء وكانت النتيجة أن كان في الدنيا
وأهذا وللآخرة طالبا يقول - رضى الله عنه - (اذكر الله عز وجل
في السراء يذكرك في الضراء فإذا أشرفت على شيء من الدنيا
فانظر إلى ماذا يصير) (٢) .

وكان ينتهج سلوكا صعبا لا يقدر عليه إلا الذين طرخوا الدنيا
وراء ظهورهم وحدوا لهم هدفا واضحا المعالم ، إنه النجاة من
يوم توزن فيه الأعمال ويطلب كل واحد أن يأخذ كتابه وأن يقرأه
على الخلائق قراءة متأملة وهناك يجد فيه الصغير والكبير والفقير
والغني .

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِمَنْ الْقِيَامَةِ)

فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة

من خردل أتينا بها وكفى بسيما

طاسمين (٣)

(١) الحلية ص ٣٩٦ ج ٢ .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ص ١٣٢ .

(٣) الأنبياء ، الآية ٢٧ .

يروى أن زوج أبي الدرداء شكت إليه حاجتها إلى الدقيسقى فأجابها (إن أماننا عقبه كزود ، المخفف فيها خير من الشغل)^(١)

والنص الثاني يدل على أن الرجل كان يقن النظرية بالتطبيق ويشتد أنه إذا انفصلت النظرية عن التطبيق أصبحت العادة رسوماً لا معنى لها ولهذا فلا بد من أن يتفقه المسلم ليدرك الصواب في عبادته ، وكأنه يشتد على العباد بلافقه هي كالزعم الذي لم يصله الياء فصوره إلى التناقض واليهول يقول رضى الله عنه (إنفسك لا تفقه كل التفه حتى ترى للقرآن وجوها ، وإنك لا تفقه كل التفه حتى تفقه الناس في جنب الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أعين فقط منك للناس)^(٢) وقوله أيضا (أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أبا عيسى ، أعانت أم جهلت ؟ فإن قلت علمت لا تبقى آية أمرة أو راجرة إلا أخذت بغرضتها ، الأمرة هل اثبتت ؟ والراجرة هل ازدجرت ؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع ونفس لا تتبع ، ودعائه لا يصح)^(٣) .

ويستفاد من مجموعة الأقوال التي تركها لنا أبو الدرداء - رضى الله عنه - أن مذهبه في السلوك يقوم على عدة دلائل :

(١) الزهد لابن حنبل ص ١٣٧ ص ١٣٨ .

(٢) الحلية لأبي نعيم ص ٢٠٨ ص ٢١٤ .

الدعامة الأولى :

هى إصلاح الفرد ليكون سبيلا إلى إصلاح المجتمع

الدعامة الثانية :

إقرار مجموعة من المبادئ الأخلاقية الرائدة التى توجه سلوك المجتمع إذا ما تحولت إلى قالب ينصب فيها العقل الجمعى فيوجه السلوك إلى الصلاح والفلاح فى الدارين .

الدعامة الثالثة :

يرى أبو الدرداء أن السبيل إلى الفوز فى الدار الآخرة هو التقوى والورع ، والزهد فى هذه الحياة الفانية التى ليست فى الحقيقة إلا دار ابتلاء وهم ونصب .

يقول رضى الله عنه - موجها النصح إلى أخيه - فى الإسلام سليمان " يا أخى اغتم صبتك وفراغك قبل أن ينزل بك البلاء " ما لا يستطيع العباد رده واغتم دعوة البتلى . ويا أخى ارحم المتوسم وأدنه منك وأطعمه من طعامك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (وأداء رجل يشتكى فساد قلبه - فقال الرسول صلى

الله عليه وسلم (أحب أن يلين قلبك ؟ فقال نعم . قال ادن إليهم منك واسح رأسه وأطعمه من طعامك ، فإن ذلك يلين قلبك وتقدر على حاجتك .) وما أخى من لى . ولك بأن توافى يوم القيامة ولا تخاف حسابا (١) .

وهروى أن رجلا سأل أبا الدرداء أن يعلمه كلمة ينال بها ثواب الله عز وجل ورضوانه فقال : " لا تأكل إلا طيبا ولا تدخل بيتك إلا طيبا . وسئل الله عز وجل رزق يوم يومه ، وإذا أصبحت فعد نفسك من الأموات وهب عرضك الله عز وجل ، فمن سبك أو شتمك أو قاتلك فده لله عز وجل ، وإذا أسأت فاستغفر الله عز وجل (٢) .

ولو أننا طوّلنا أن تأتي على كل موعظه وحكمه لطلال بنا الوقت وتشعبت بنا المسائل وذلك لما به من كثرة العلوم ومعق الفهم .

ولفت النظر في شخصيته أنه كان عاقلا لبيبا وذكيا أريبا وطيبا متخصما في معالجة الأدواء التي تنزل بالقلوب حين تتحسرى عن العبادة . وقد أثنى عليه معاوية - رضى الله عنه - فقال كان والله أبا الدرداء من العلماء الحكماء ، الذين يشفون

(١) الحلية لابن نعيم ص ٢١ ج ١

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢ ص ٢٢٢ ج ١

من الداء (١) وحق له أن يقول ذلك فلقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يمد الصوفية بغض من بحر عليه ، ولذا كان إلا أنه رفع عن جسمه هيموم الدنيا وشاغلها وهذا فتح الله له باب الفهم على معاريفه فألبسه الرشد والصواب فيما ينطق ، ولهذا كله اعتبره الصوفية المياما لهم به يقتدون ومن بحرهم يخترقون ، فأنعم به من صابرين مقتدرين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك كان عرضاً موجزاً للتاريخ بعضاً علام الصفاة ، ولقد آثرت أن يكون هذا المرض موجزاً اعطاء التطويل ورغبة في أن أصل بالقرى إلى معان محددة هي أن عبادة الصوفية وبتأثيرهم وسالكهم وبماضتهم وضروب زهدهم كانت متأثرة في نشأتها بصفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين عاينوه وتلقوا عنده والواقع أن أى باحث في الصوف لا يستطيع أن يتجاهل أثر الصفاة في إنحاء هذا اللون من الحياة الروحية التي تقوم أساساً على تنمية الروح وإضعاف الجانب الحسى ، وقد كنا نستطيع أن نستعرض نفس ذكر كثير من هؤلاء الصفاة الأجلاء لنثبت أن الحياة الروحية وما انطوت عليه من منازع وسلوك ومذاهب واتجاهات ، وما صدر عنهم من أقوال متطرفة أو منشورة كل ذلك قد نشأ من مطولة التأمل والاعتقاد بصفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢ ص ٢٢٩ ج ١ .

الفصل الرابع

حياة التابعين وفضائلهم في الزهد

الفصل الرابع

(تمهيد)

بعد أن قدمنا نماذج من حياة الصحابة تدل دلالة واضحة على أن الصوفية كانوا يترسمون خطاهم في مسالكهم نحو الغايات العظمى وهي جرعة من رضا الله عز وجل تسرى فسي أوصالهم وتسم أرواحهم فيسكنون إلى الله وينعمون بحياة هائلة تتمثل في رضا الرب المحبوب عن العبد الذي أسهر ليله وأطلس نهاره في طريق المحبة سردها ذلك الهتاف الرباني .

(جزاءهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) (١)

وعليها الآن أن نقدم بعض نماذج من زهاد التابعين المعروفين بالتمعيد والتسلك والذين أعرضوا عن الدنيا ؛ إذ أخضعوا أنفسهم لزهد قاس ورياضة جادة تنأى بالعبد عن دنيا الناس

(١) سورة البينة الآية رقم ٢٤ .

وتغيير مقاييسه فيصبح كل مأوله فى الحياة سنة وصال من ربه
هى فى الحقيقة عالم التعميم وهو عالم نقى القلب ، لطيف المشاعر له
أدب مع الله وأدب مع رسوله وأدب مع نفسه وأدب مع غيره .

عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله هليق أن ينسب إلى الله .
وهذا العالم يمثل فى أولئك الذين حظوا بشرف الصحبة لرسول
الله (صلى الله عليه وسلم) ومن ثم غدت حقائق التوحيد جليلة
ظاهرة فى سيرتهم أولا ثم فى سيرتهم ثانيا حيث طبقوها فى مراحل
التففيذ العملى لهذا الدين واضعين بذلك أرقى نظم السولا
والانتها التى عرفتها البشرية ونحن هنا نسير وفقا للحديث النبوى
الشريف القائل (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم) .

وانتهى عصر الصحابة الذى امتاز بطابع العبادة الصحيحة النقل
عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمثلا فى محاولة التأسى
الكامل قدر الطاقة البشرية . ثم اقبلت الدنيا على الناس بكل ما فيها
من زينة ومتاع أسر وترفيه مفرق. وذهب الناس مذاهب مختلفة فسى
التحليل والتحرير والتأويل لكن قوما تركوا الدنيا وراءهم ظهر يسا
وخلفوا ما يعتبره الناس متاعا ورأوه عذابا لا منجى منه إلا بالزهد
فينا عند الناس هؤلاء هم الذين سماهم بعد اصطلاحا باسم
الزهاد أو الصوفية .

وقد لمع هذا الملمح (ابن خلدون) فى الفصل الذى عقده عن
التصوف تحت عنوان (فى علم التصوف) (١) حيث اعتبره من العلوم
الطائفة فى المسئلة وكانت رد فعل للإقبال على الدنيا والتعلق
بحبالها .

وكان من بين زهاد التابعين الأوائل (أويس القرنى) ، وطاهر
ابن عبد الله بن عبد قيس العنبرى البصرى ، وسروق بن عبيد
الرحمن أبو عائشة الهمداني الكوفي ، وعلقمة بن قيس أبو شبيل
التخمي الهمداني ، والأسود بن يزيد أبو عمرو النخعي ،
والربيع بن خيثم أبو زيد ، وهرم بن حيان العبدي وعبد الله
بن شوب وأبو مسلم الخولاني (وغيرهم كثير لكن سنتوقف قليلا
عند " أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصرى " لما له من
تأثير قوى فى علم التصوف حيث إن التسلك من قبله كان مذاقات
خاصة خاضعة لما يحسن الناسك ويجسد .

الحسن البصرى

أمّا بعد الحسن فقد أصبح للتصوف منهاج خاص يمكن الرجوع إليه بل يمكن القول إنه أحد الذين كشفوا عن معانيه وتغشّست ألسنتهم بما فيه وكشفوا عن حقائقه ودقائقه ومن ثم لا بد لنا من وقفة نستبين فيها حقيقة هذا الناسك العابد الزاهد "الحسن البصرى" ذكر التاريخ أنه ولد لأب فارى على الأرجح فى سنة ٢١ هجرية وقد أسير أبوه فى ميسان حين استولى العرب عليها وكان أبوه نصرانياً ثم أسلم وتزوج بخيصة وأنجبت له الحسن ثم قُكَّ أسرها بعد ميلاد الحسن .

وكانت أمه ذات حد يشقى إذ تحدث الناس برصيدها الهائل من القصص والأخبار وهنا تدركها لسلام من أشر على ابنها فى مصدر موائد القصص . فقد كان متمكناً من الرواية بدراية فائقة مملاً جعل له أشرافى نفس مستمعيه وقرائه فى قرنه والقرون التالية .

وقد أدرك "الحسن البصرى" الفتنة التى أحدثت بعثمان وقتله شهيداً، ثم انتقل مع أسرته إلى البصرة وجاء زمان افتراق الكلمة وأدعاء كل فرقة الرياسة عندما أطلت الفتنة برأسها متشكلة فى شبح الأطماع الشخصية والعصبية القبلية وتبعاً لذلك انقسم المسلمون إلى قسمين رئيسيين أحدهما ينتصر لعلى والآخر لمعاوية .

ونشير يادى " ذى بدء " إلى أننا لم نرد الدخول فى اتجاهات
الحسن البصرى السياسية وإلى أى الفرقاء كان انتماءه لكننى فقط
أقول إن هذا البحر الهائج المائج المضطرب بأعماق الأحداث
والفتن المتضاربة والمتنافسة كل ذلك كان له رد فعل فى نفس
الحسن أدى إلى نوع من العبادة أضفى عليها الحسن طابعا خاصا
لأنها مزية مستقلة وصمة بارزة أعطت لدرسة البصرة كيانا
خاصا فى زهدنا وخوفنا وعبادتنا بوجه عام . والواقع أن
الفترة الزمنية التى ولد فيها " الإمام الحسن البصرى " قد أتاح
له أن يسمع كثيرا من أجادى الشارون (صلى الله عليه وسلم) عن
طريق التلقى عن الصطابة مباشرة ومن بينهم الفقيه ابن عباس
حضر هذه الأمة .

تذكر الأخبار أنه كان تلميذا لابن عباس قد تلقى عنه التفسير
والدراسات القرآنية التى اكتسب فيها مهارة فائقة إذ علمته التمييز
بين ما هو أصيل فى القصص وبين ما هو إسرائيلي دخيل .

كما تتلمذ على شيخ آخرين من أمثال " طاهر بن عبد قيس "
وصلة بن أشيم وصفوان بن محرز أو بعض آخر اندرج الحسنى
البصرى شيئا فشيئا فى طائفة القراء وأصبح - بعد مضي الجيل
الكبير من التابعين ومن كانوا أسبق منه إلى حد ما (أقول

أصبح الحسن البصرى شيخ القراء (١) وطام الزاهد يسن
متأسياً بأقوام كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت
قدميه وإن أحدهم كان يمشى وليس عنده سوى قوت يسير فيقول:
لا أجمل هذا كله فى بطنى لأجعلن بعضه لله عز وجل وإن
كان أحوج من يتصدق به عليه (٢) .

فانظر إلى لطيف إشارته عن أولئك الذين يرفضون الدنيا رفضاً
قاطعاً إلا ما يقسم الأبد وحفظ الحياة أما الباقي فهو فى نظرهم
نافلة وفضل ينبغي أن يحفظ فى خزائن الحق تعالى حيث يدخر
ليسوم يسأل فيه عما قدم الإنسان لنفسه وأخره . وهذا استحق
للكالص الذى وصفه به صاحب الحلية بحق إذ قال :

(حليف الخوف والحزن أليف الهم والشجن عديم النوم والوسن
الغفيع الزاهد التثمر العابد كان لفضول الدنيا وزينها نابذاً
ولشهوة النفس ونخوتها واقذاً) (٣)

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام المرحوم د / على سامى النشار
ص ١٦٢ ، ١٦٣ . الجزء الثالث ط . الأولى ، دار المعارف

(٢) الحلية لأبى نعيم ص ١٣٤ ج ٢

(٣) الصدر السابق ص ١٣١ ، ١٣٢ ج ٢ الوسن من الناس ،

وَوَقَّذَهُ : صَرَعَهُ وَسَكَّنَهُ وَقَلَّبَهُ وَتَرَكَّهُ غَلِيلاً .

وتقوم الحياة الروحية عنه على الزهد فى الدنيا وإطراحها ،
 والاحتجاب عن الجاه والسلطان الذى هو حظ من حظوظ النفس .
 والإقبال على الله عنه قصد وغاية تمرى فى كل كيانه فتشمل له
 دنيا الناس كأنها شيطان يطول أن يصصره فلا بد من هارعه
 وحريبه ووسيلة الحرب الفاعلة الفتاكة لهذا العدو والمادى اللعين
 هى الزهد فيها والإعراض عنها مع ملازمة الخوف من الميسر
 والاستعداد ليوم الرحيل .

يقول المؤرخون إنه كان يفتى مجالس الذكر التى يجد فيها
 خلاوة القرب من الله والأنس به مع أولئك الزهاد والعباد الذين
 وجدوا فيه السبيل السائبة والطريق القويم إلى الحياة الروحية
 التى قوامها زهد " مع توكل وخوف مع حزن ولا بد أنه قد دار
 بينه وبين رفاقه من التماكيا والعباد حديث خائف وجل " مما
 تتحدث به النفس من خاطراتها وهواجسها يقع فى القلب من خواطر
 ووساوس مادية وما لذلك من أثر فى التصير فى الأعمال ما يجعل
 الشاعر جياشة هائلة خائفة مضطربة من الصير الذى يواجهها
 قطعاً مهما أكثر من عمل الخير إن لم تمن القلب رحمة " من
 الله وهو الرحمن الرحيم ولقد كان رضى الله عنه تابعياً وثيق الصلة
 بشيخه مجلاً لهم .

يقول أبو قتادة معبراً عن أدبه فى التزام شيخه من الصلابة :

(ما رأينا أحدا لم يصحب رسول الله " صلى الله عليه وسلم " أشبه
بأصحاب الرسول منه (١))

فكان تابعيا بحكم النشئة التاريخية إلا أنه صايب بحكم المحبة
للرسول (صلى الله عليه وسلم) لقد كانوا يشبهونه بخليل الله
إبراهيم عليه السلام في حلمه وخشوعه ووقاره وسكينته .
أى أنه يمتاز بصفات عظيمة كالتى كان يتحلى بها نبي الله إبراهيم عليه
السلام .

ولقد كان الطابع الغالب عليه فى تبلیغیه للدعوة الوعظ الممزوج
بالقصة رغبة منه فى غرس المبادئ والقيم العليا التى يريد من
سامعيه أن يتأملوا بها . يروون أن " على بن أبى طالب " كثر
الله وجهه دخل مسجد البصرة باحثا عن القصاص الذين لا يخرجون
من ذكر القصاص المثير بغض النظر عن طبيعة صدره فوجد وسط
أولئك القصاص حلقة قد كثر روادها وقد توسطهم شاب صغير وقصور
يتكلم فى موضوع وقد استطاع أن يحسمك بزمام الحديث ويجمع أطرافه
إلى درجة أنه لفت انتباه أمهر المؤمنين فقال له يافى إبنى سائلك
عن أمرين فإن أجبتنى عليهما إجابة مقنعة تركتك وشأنك تحدث فى

(١) التصوف الإسلامى ، زكى مبارك ج ٢ ، ص ١١١ .

الناس بما شاء الله للولاء لحقت بركب القصاص الذين طردوا مخافة
الابتداع في الدين .

فقال " الحسن البصرى " سل يا أمير المؤمنين فقال " على " .
أخبرنى ما صلاح الدين وما فساد ؟

فقال : صلاحه الورع وفساده الطمع فقال صدقت تكلم فضلك يصح أن
يتكلم على الناس (١) . وغير خاف أن إقرار على رضى الله عنه " بطالسه
من حجة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقدرة فائقة على فرز
الغش من الثمين معناه أن إمامة الوعظ قد انتهت إلى الحسن فيما
يحدث أو ينقل .

والذى لا جدال فيه أنه أحد أولئك الذين أعطوا للتصوف سولن لم
يكن تحت هذا الاسم - سمات بارزة من أبرزها الزهد والفقه .

يذكرون أنه سأل مرة عن مجرد لبس الصوف هل يكون دليلا على زهد
صاحبه فأجاب بأنه لا بد من التمييز بين الاحتراف وبين الزهد
الحقيقى .

فالزاهد الحقيقى متواضع لبنى جنسه مراقب لله فيهم فإذا اعتراه الكبر
والخيلاء والإعجاب بالنفس لا يكون زاهدا .

ذلك أن شرط الزهد الحقيقي هو إخضاع النفس للخالق مع ترك
 حظوظ النفس كاللهاية والغرور والعجب التي هي خصال المتعلقين
 بالدنيا • ومن ثم فإن المسألة ليست في مظاهر اليأس وإنما
 هي قائمة على التواضع لله عز وجل • فإن من تواضع لله عز وجل
 زاده نورا يجد حلاوته في قلبه ^(١) • ومن لبس الصوف للتكبر
 والخيلاء كور في جهنم مع المردة • وهذا الذي قرره - ممن
 التواضع والزهد في الدنيا مع العبادة المستمرة المقرنة بالخوف
 من الله عز وجل - تكون المعرفة المؤدية إلى الفقه في الدين
 وهذا ظهر على الساحة الفكرية بمعنى جديد للمهبة والزهد مع
 الخوف حيث لا يكون ذلك كله إلا بالفقه فليس الفقه هو إجراء الأحكام
 على ظواهرها التي هي الامتثال الظاهري في الأداء وإنما الفقه
 فقه لأحوال الباطن كما هو فقه لأحوال الظاهر وهذا يكون
 الحسن البصري قد عمق مفهوم الفقه • وأصبح علم الشريعة
 وعلم الحقيقة وجهين لسمى واحد، وهكذا تحدد علم التصوف وظهرت
 حقيقته التي تميزه وتصله عما عداه من العلوم الأخرى •

ومن هنا كتب الكتاتيون فيه كتابة واضحة بعد أن أبان الحسن
 البصري قواعده وأصوله ونظرياته •

يذكر صاحب اللع أن الحسن عندما سأل عن العلاج الطاسم والدواء الناجع في طريق الوصول إلى الله فأجاب إن أعظم شيء يعين المبالغة على بلوغ نيتته هو "الثقة في الدين فإن يصرف إليه" قلوب المتعلمين والزهد في الدنيا فإنه يقرئك من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك يحويه كمال الإيمان (٢٠)

والإيمان إنما يبدأ بالقلب حيث يكون القلب في حالة شعور دائم بالمعبود الأعظم وهذا الشعور إنما يحس به أولئك الذين زهدوا في الدنيا وقطعوا العلائق الدنيوية حتى أصبحوا يسيرون وراء الغاية المعطى وهي معرفة الله عز وجل . ومن ثم كثرة حديثه عن القلوب بسبب أنها موضع الخوف والرجاء فلا بد أن يخوفها حتى يتكون لديها هذا الشعور .

يرورون أن الحسن البصري دخل المسجد وقد اعتراه وجد حركتيه المشاعر (فأخذ يتنفس نفساً شديداً وبكى حتى أربد منكباء . ثم قال :

" لو أن بالقلوب حياة ، لو أن بالقلوب صلاحاً لأبكتكم من ليلة طبيعتها يوم القيامة أن ليلة تخضع عن طبيعة يوم القيامة ماسع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة يادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة) (١)

وهنا نتساءل عن سر ذلك الحزن المتواصل الذى لا يفارق الإمام
الجليل ويمكن العثور على تحليل واف ودقيق إذا أمعنا النظر
فمما تركه لنا من أقوال وأفعال كونت قواعد للسالكين إذ من الواضح
أن مذهبه يقوم على الزهد فى الدنيا والاحتجاب عن بريقها
وزخرفتها، ذلك بالإضافة إلى تكوينه الشخصى .

فشخصيته ميالة بطبعها إلى الحزن وهذا يفسر لنا سسر
تفكيره فى الموت الذى يذكره بيوم يتطلع فيه الله على الخلائق
وينبؤهم بما عملوا ، فبالله من موقف مروع للأفئدة محزن للقلوب .

وفى رأيه أن تذكر الموت يجعل العبد منخرطاً فى سلك الطاعة
بحيث لا تحلوه الدنيا التى هى فى الواقع متاع كاذب يخدع به
الفسر . أما الانسان الذى يداوم على التفكير فإن له حياة
أخرى غير حياة أولئك السائرين فى غيهم المشغولين بأمور مادية
بحسنة .

ولقد ظل الإمام الحسن البصرى مشغولاً بالمقارنة بين نتائج
الحياتين : حياة فانية ، وحياة طامعها الخلود فى النعيم الأبدى
الذى لا يحول ولا يزول . ولا شك أنه قد طرح على نفسه هذا
السؤال أثناء سيره فى الطريق نحو قعدة وظائمه التى لا يخطر عليها

أى الحيائين خير مقاما وأحسن نديا ؟

وتأتى الإجابة واضحة لا غشوض فيها. إنها حياة الركون إلى الله والاعتماد عليه ، والطمع فى رحمته والأمل فى مشاهدته بعين البصر هناكفى عالم لا يفسخ فيه أحد ولا تروع فيه الخلائق فهو عالم الأمن والأمان وإن شئت نقل إنه عالم الحصول على نتائج الأعمال ولذا فإن على العاقل أن لا يضيع وقته فى ما لا ينفع وأن يعتمد إلى الأوامر التى أمرنا بها محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فينفذها تنفيذا متقنا وأن يتجنب النواهى التى نهانا عنها .

فإنه بهذا يؤكد أن الوسيلة الصحيحة فى نيل السعادة الأبدية إنما هى فى إتقان العمل وإحصائه مستشعرا بذلك حد يترسل الله (صلى الله عليه وسلم) القائل :

” الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ”

كما أن ذكر الموت يفسر لنا سر الخوف الدائم المستولى على كيان الحسن البصرى إذ أنه بقطع سبيل الرياء إلى نفس العبد . ويظهر هذا الملمح جليا فى إجابته على سؤال أحد مريديه الذى سأله أى الطائفتين من العلماء أجدى نفعا ؟

العلماء الذين يخوفون الناس في الوعظ أم الآخرون الذين لا يتخذون
الخوف سبيلا لتحقيق الهدف ؟

فأجاب: (إِنَّ مَنْ خَوْفِكَ حَتَّى تَلْقَى الْأَمْنَ خَيْرٌ مِّنْ أَمْنِكَ حَتَّى تَلْقَى الْخَوْفَ^(٢)).

ومن هنا فإن الطابع الذي غلب على شيخ التابعين هو البحث
بالتنقيب عن الآيات التي تجعل القلوب خائفة وجلة ترجو الرحمة
وتخاف العذاب وهي في القرآن تَدِقُّ على الحصر وعلى سبيل
المثال فإنه قد توقف عند قوله تعالى :

” وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
قَرَامًا^(٢) .

فبين للناس أثناء وعظه أن المجتمع المؤمن لا يشغل وقته
بالبحث في الأمور السدنيوية البحتة وإنما هو مشغول بتحقيق
الهدف الأعلى والمقصد الأعلى المتمثل في طاعة الله عز وجل ،
ولذا فإنهم مشغولون بما يملأ نفوسهم من اهتمامات عليا .

ولا يلتفتون إلى الحيق والسفها ف هؤلاء هم الأخسرون أعلا .

(١) الزهد ابن حنبل ص ٢٥٩

(٢) قرآن كريم سورة الفرقان الآية رقم ٦٥ من سورة الفرقان

(لذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم
يحسنون صنعا) (١)

تلك هي حياة المجتمع المؤمن أثناء النهار: عمل مستمر فسي
إصلاح المجتمع وتقيمه والترفع عن سفاسف الأمور ولا يحسن أحد
أن ليلهم استسلام للنوم وخلود للراحة. بل هو ليل عامر "بمراقبة الله
والشعور بجلاله والخوف من عقابه .

فانظر إلى شعور المؤمن وهو يلقي بسمعه إلى تلك الآية وقف
أمامها لحظات يتأمل في معانيها - لا تسأل عما يحدث من حلال
الخوف والسرعة . .

يخاف العذاب ويهجو الرحمة مدركاً أن كل فرير مظرق غريمه
إلا غريم جهنم . كما يطيل الوقوف عند قوله تعالى :
" وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا
عليكم شهداء إذ تخفون فيه وما يحزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض
ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين " (٢)

(١) قرآن كريم "سورة الكهف الآية رقم (١٠٤)"

(٢) قرآن كريم "سورة يونس الآية رقم (٦١)"

إن يمد إلى نفس سامعه فيهرها هذا هيفاً يشير فيها
 شعوراً مخيفاً مرعباً لا لبس للنفس على التخصير والطاعة ، ولأنه
 يضع أمام سميعه صورة الإنسان وقد جنحت به نفعه إلى شأن من
 شئونه ، ضاربا فيها بهم وأقر وقد ملك عليه كل حياته ولم يبق
 للتذكر والتدبر عى ، وكل ذلك لم يقع فى غفلة بل تحت مراقبة الله
 ونفى معيته . .

كيف يكون شعور هذا العبد عندما يدرك تلك المعية حتى نفس
 حديث النجوى .

كيف يكون حال هذا العبد عندما يحس بأن الله معه
 يحلمه وشاهد فلابد والحالة هذه * أن يرتشم الوجدان إشفاقا
 ورهبة ، ويخشع القلب إجلالا وتقوى حتى يطيش الإيمان من الرهبة
 والرهبة ويهدأ القلب الواجف بأنس القرب من الله . (١)

هذه الحقائق الواردة فى الآية التى عرضت لنا تلك الصورة صورة
 العباد وما يشتملهم من أحوال متضاربة فالله مع العباد حاضر بجلاله
 وملائكته يشهد كل أعمال الناس ويعلم الخطاىات التى تهب على
 النفس .

(١) راجع فى ظلال القرآن سيد قطب ص ٨٠٠ المجلد الثالث .

هذه الصورة تجعل العبد يفكر قبل الإقدام على ما يخفض
الله عز وجل الطاهر العليم ومن ثم يكون الخوف أحاساً للمعبادة
وسبيلاً للقرب من الملك الذي لا تلحقه الغفلة ولا تدركه السنة .
وهكذا وقف الإمام الحسن مع القرآن متديباً متفحصاً لمعانيه
خالفاً من عذاب ربه راجياً رحمته بكثرة البكاء خوفاً من أن يكون قد
ألم به تقصير .

ومن ثم " غلب الخوف عليه حتى كأن النار لم تخلق إلا لـه
وحده " (١) .

ولاسبيل إلى إشعال نار الندم على ما فات من تصحيح الذات
القرآن فذلك هو الذي يقطع الإنسان عن الملائق النبوية - ويربط
الإنسان ربطاً محكمًا بدار البقاء فيقسم بالله على أن العبد إذا قرأ
القرآن ، ثم آمن به ليطولن في الدنيا حزنه ، وليشتدن في الدنيا
خوفه ، وليكنن في الدنيا بكاءه " (٢) .

وهكذا نستطيع أن نفهم منابع الزهد عند الحسن بالعامل
النفسي نفسه بطبيعتها مائلة باطراح الدنيا والزهد فيها . ولقد
وجد طلبه في القرآن عموماً وفي الآيات الواردة في التقليل من شأن
الدنيا خصوصاً وهذا في حد ذاته أدى به إلى العامل الثاني

(١) الطبقات الكبرى للذهبي ط ٢٦ ص ٢٦ (٧) الزهد ابن حنبل .

وهو التذكر الدائم للموت الذي هو النهاية الفعلية للبشرى
في الدنيا مهبط بدت في عكسها الغلاب وثوبها القسيب نصيرها إلى
الزوال تماما كالأشجار الذي تذروه الرياح .

ولذلك فإنه يعتبر الدنيا (مطية الإنسان إن ركبها حلتقه
وإن ركبته قتلته) (١) .

وهذه النظرة إلى الدنيا جعلته مستغلا بالأيام والنهار
يرصد ها على نفسه بداية من الفللق تتلوها الساعات تردفها
السهور تبعها السنوات ولقد وقف رضى الله عنه - متأملا نفس
انقضاء الددة التي يقضيها الإنسان على الأرض وفي النهاية الصيرورة
التي يلقها الكائن الحى وفي مقدمة ذلك أن الإنسان المخلوق من الماء
المهين ومع ذلك فهو خصم مهين لربه وخالفه .

فإن كان ذلك كذلك فإن الدنيا لا ينبغي أن تكون هم المسلم
الدائم بل يجب الزهد فيها والخوف من الإدمان بها والركون
إلى رحمة الله فلا غربة بعد ذلك في أن نجده رضى الله عنه خاتما
وجلا حزنا .

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ط ٣٠ .

فإن المؤمن لا بد أن يصبح حزينا ومضى حزينا ولا يصح
ذلك لأنه بين مخالفتين ، بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه
وبين أجل قد بقى لا يدري ما يصيب فيه من المهلك * .

وعلى العاقل ألا يركن إلى هذه الدار التي لا توري إلا البوار
لأن كل ما فيها لا يعد وأن يكون شرياً يحسبه الظآن ما ، حتى
إذا جاءه لم يجد شيئا .

فعلى العاقل أن يحذر هذه الدار " الصارعة الخادعة الخائفة
التي قد تزينت بخدعها وفزت بغيرورها وقتلت أهلها بإيليا تشوفت
لخطاياها كالعروس المجلوة العيون إليها ناظرة والنفس لها عاشقة
والقلوب إليها والهبة ولا لبائها دافعة وهي لأزواجها كلهم قاتلة
فلا الباقي بالماضي معتبر ولا الآخري بأرى من الأول مزدجر .

واللبيب بكثرة التجارب منتفع ، ولا العارف بالله والصدق بالله
حين أخبر عنها مذكر * (١) .

ونحن نعتبر أن هذا الإمام الجليل فاضلا بين مهدين عهد
كان فيه العباد يصرقون كل هيم إلى نشر دعوتهم في إطار محدود

(١) الحلية لأبي نعيم ج ٢ ص ١٣٠ .

حسب طبيعة الشيخ الذي يعظ في العباد يتلقون منه يفعلون ما يفعل
ويذرون ما يذرون والهدف من ذلك هو محاولة تأديب النفس وتهذيبها

وهذه كان فيه الحسن طالعاً يشب إليه الناس من كل صوب
وحدث يستغثونه عن الطريق الذي يؤمن العثرات ويصل بالمهد إلى
بلوغ المرام . وفقاً لقواعد وأصول منهجية فكان بحق سيد البصرة
بلا منازع ومرجعها في علوم الذوق وظل كذلك زاهداً خاتماً حتى
وافته المنية سنة ١١٠ هجرية .



* سعيد بن المسيب

وهذا نموذج آخر من التابعين هو أبو محمد سعيد بن المسيب ابن حزن المخزومي من كبار علماء المدينة وعبادها ونسائها الذين عرفوا بالسيطرة على كبح جماح النفس ، والزهد في الدنيا والنظر إلى ما عند الله من ثواب الآجلة ويكفي أن تصهد هذا يقول إمام جليل من أئمة الإسلام هو أحمد بن حنبل الذي يقول عن سعيد ابن المسيب أنه أفضل التابعين ، وتدللا على ثقته وسكانته عنده فقد كان يقبل الأحاديث المرسلة التي يرويها سعيد ويقول نحن نقبلها لأنها صدرت من سعيد ، وذلك لأنه كان يترك كل طائفة الساحة في التعرف على قوة الحديث وروايته فقد كان يحير متقلا إلى شيخ يسمع أنه روى حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيشئ إليه أياما وليال غير ناظر إلى مدى الجهد والمناء الذي سيذله .

إن عالما يبدل هذا الجهد ويبلغ هذه المنزلة عند ابن حنبل لجدير أن نتوقف عنده قليلا مع آرائه في طريقة العبادة وفي رأيه في الزهد ، وفي موقفه من المظاهر المستقرة الثابتة عنده ، والذي يظهر من دراسة هذا الإمام الجليل أنه كان صديقا لابن عمر تربط

بينهما صفة مشتركة هي كلمة الحق ، ولقد ظهر ذلك جيداً في موقفه من المتنافسين على الإمارة حيث يذكر التاريخ أنه رفض البيعة للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان برغم محاولات الكثرة في أخذ البيعة منه وذهب في هذا إلى حد أن خطب ابنته لابنه الوليد ولكنه لم تأخذه زخارف الحياة الدنيا ومباهجها وكان من نتيجة رفض البيعة والزواج أن ضُرب ضرباً مبرطاً حتى لم يعد يقوى على الوقوف على قدميه ولكن الحق يستقر في قلبه ، والفهم ثابت في وجدانه ، ومن ثم فإن كل صنوف الأذى لم تستطع أن تزحزح سميداً عن الحق الذي يراه ، ومن هذا المنطلق رفض البيعة للوليد ^(١) ، كما رفض أن يزوجه ابنته ولم يعبأ بكل ما عند الوليد من دنيا يعتبر نفسه غريباً عنها وأهدأ فيها ، لما فيها من ظلم ، وإن أصعب شيء على النفس أن يرى الإنسان الظلم ولا يستطيع دفعه ، وأعظم منه أن يتشكّل الظلم في الولاية حين يمدون إلى جلب الحقوق وقهر النفوس وقد كان من الممكن أن يوافق على ما يريده الحاكم لولا أنه صاحب مبدأ يقول : "إنما أحرار في سلوكهم ماداموا لا يتجاوزون حداً من حدود الله ومن ثم فإن السعادة في الزواج ليست في غنى طبع بل في الشهور بالراحة وعدم النفس وطمأنينة البال " .

(١) طبقات تلخيص سعدى ١٣٣ ج ٥ .

ولقد طبق هذا المبدأ تطبيقا عمليا حينما أراد أن يزوجه ابنته
من تلميذ له عرف بين الناس بالفقر لكسبهم كانوا يصفونه بالتمسك
والتمسك يقول ابن أبي وداعة قال كنت أجالس سعيد بن المسيب
نفذني أياها فلما جئته قال: أين كنت ؟ قال توفيت أهلي فاشتغلت
بها . فقال: ألا أخبرتك فسدناها ؟ قال ثم أردت أن أقوم فقال:
هل استحدثت امرأة فقلت يرحمك الله ومن يزوجني وما أملكك
إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال: أنا ؟ فقلت أو غملم ؟ قال: نعم ثم حيد
الله تعالى صلى على النبي صلى الله عليه وسلم . . . وزوجني على
درهمين أو قال ثلاثة قال: ففقت وما أدري ما أصنع من الفرج وجعلت
أشكر من آخذ ومن أستاذ من نصليت إلى منزلي واسترحمت وكنت
وحدى صائبة فتناولت إبطاري وكان خبوا وزيتا ؟ فإذا بآت يفرغ فقلت
من هذا ؟ قال: سعيد قال : ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب
فإنه لم ير أرمين سنة إلا بين بيته والمسجد ففقت فخرجت فإذا سعيد
ابن المسيب فظننت أنه قد بدله فقلت لها أيا محمد ألا أرسلت إليَّ
فأتيتك فقال: أنت أحق أن تزويني قال قلت: فلما تأمر قال : إنك كنت
رجلا عنها فتزوجت ففكرت أن تنبت الليلة وحدك وهذه امرأة لك ، فإذا هي
قائمة من خلفه في طوله ، ثم أخذها بيدها فدفعها إلى الباب ورد الباب
فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم رأت القصة السقي
فيها الزيت والخبر لكي لاتواها ثم صعدت إلى السطح فبهت الجيران

فجاءوني فقالوا ما شأنك قلت : صحك زوجتي سعيد بن المسيب
 ابنته اليوم وقد جاء بها على قلة ، فقالوا : سعيد بن المسيب زوجك
 قلت نعم ، وها هي في الدار قال فنزلوا هم إليها ، وبلغ أمسي
 فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسحتها قبل أن أصلحها
 إلى ثلاثة أيام : قال فأقمت ثلاثة ثم دخلتُ بها فإذا هي أجمل
 الناس وإذا هي أخف الناس للكتاب الله وأعلمهم بسنة رسول الله
 صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ، قال فمكتت شهرا
 لا يأتيني سعيد ولا آتيه فلما كان قرب الشهر أتيت سعيدا وهو
 في حلقة فسلمت عليه فرد علي السلام ولم يكلمني حتى تقضى أهل
 المجلس فلما لم يبق غيري ، قال ما حال ذلك الإنسان قلت خيرا
 يا أبا محمد علي ما يحب الصديق ويكره العدو ثم قال سعيد
 يا عبد الله إن خف عليك أن تزورنا فافعل (١) .

فانظر إلى هذه القصة التي عرضت نفسي سعيد تلك النفسنة
 الزاهدة التي لم يدخلها الطبع في متع الحياة وقد كان المعرض
 أمامه سخيا يحول الفقير إلى رجل من أصحاب رؤوس الأموال في رقعة
 واسعة متوازية الأطراف لو أن موازينه كانت كوازين الدنيا ، لكنه
 ينظر إلى ما عند الله من خير ، يعتقد يقينا أن الميزان الصادق

(١) الحلية لأبي نعمان ص ١٦٨ .

هو ما وزن به القرآن الناس (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)^(١).

وهو في هذا مثل يُحتذى وقدوة في التقوى والنبل والفضل
وأسم بها من صفات تكون الرجال وتربي القيادات
وهو كذلك ما ربهته به المالكون إلى مدارج رب العالمين
وهذا العلم الذي رزقه سعيد بن المسيب يعود في المقام الأول إلى
أنه تلقى عن كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا سيما ابن عمر الذي قال عنه (لو رأى رسول الله صلى الله عليه
وسلم - هذا لعمره - مشيراً إلى سعيد^(٢))

وهذا القول في حد ذاته يعطينا المكانة العليا التي كانت
في نفس ابن عمر لهذا الإمام الجليل يقول الزهري في بيان شيوخه
الذين أخذ عنهم من الرجال والنساء عندما سئل عن أخذ سعيد
بن المسيب عنه ؟ قال : عن زيد بن ثابت ، وجالس سعيد
ابن أبي وقاص ، وابن عباس وابن عمر ودخل على أزواج النبي صلى
الله عليه وسلم - عائشة وأم سلمة وكان قد سمع من عثمان ابن عفان
وعلق وصهيب ، ومحمد بن سلمة .

(١) مسورة الحجرات ، الآية ١٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ص ١٢٢ ج ٥ .

وإذا كان قد تلقى عن هؤلاء المذكورين فإن أبا هريرة قدس
ألفه وأنس إليه منذ كان شاباً في ريعان الصبا فتشأت بينهما مسودة
على مائدة السنة التي كان فيها أبو هريرة شيخاً لأحدَيْت له إلا
الحديث عن سمع وشهد وتأمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولاعك كذلك في أن أبا هريرة قد أحس بأن سميداً قد فتح صايف
قلبه كلفاً بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم محباً له مداً وأغبر
مطارق غسيت هذه العلاقة في هذا الإطار حتى انتهت بتزويجهم
سميداً من ابنته ولا يحنياً أي الرجلين قد عرض على الآخر الزواج
وإنما الذي يحنينا هو علاقة سميد بأبي هريرة ذلك الصايف
الجليل الواسع النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك العلاقة
التي توجت بالصاهرة وزفاف ابنة ذلك الصايف الجليل إلى سميد
دوغماً هرج كالذي اعطاه الناس في أفواحهم ولا فرو فقد تشأت
في محض إسلامي صرف فقد كانت مزودة بقدر روافد ما أدبها به
أبوها ما كان يقصه عليها من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم
في الأقوال والأفعال وما يردد على سميداً من قولن وسنة ولا شك
أنه صيد هائل قد حواه قلبها ووطأ سميداً .

وقد انتقلت بهذا الصيد إلى بيت الزوجية فعاثت عيشة
هنيئة في معية ذلك العالم التقى الروح العابد الزاهد ولم تخبر

في حياتها من البيت إلا اضطرابا حيث خرجت إلى ابنتها لتساعد
في استقبال مولودها التي كانت تضعه لأول مرة ويروي لنا عبد الله
ابن أبي ربيعة زوج ابنة سعيد يقول رجعت إلى الدار وإذا بها
شخص ما رأيته قط فرجعت موليا فنادتني من ورائي يا عبد الله
ادخل لقد أحل الله لك هذه النظرة فقلت ومن أنت يرحمك الله
قالت أنا أم العروس يا عبد الله ، كيف رأيت أهلك فقلت جزاكم الله
من أهل بيت خيرا .. لقد ربيتم فأحسنتم وأديتم فأحسنتم
فقلت : يا عبد الله لا يمنعك مكانها من أن ترى بعض ما تكسره
فتحسن أديها . . . بارك الله لك في المولود وجعله مباركا طاهرا
لله ، ووقاه الشيطان وجعله شبيها بجده سعيد فوالله
إنى لزوجه منذ أربعين سنة ما رأيته عسى الله تعالى قطعه
فلم أرها وجها ثانيا عشرة سنة حتى قضى عليها الموت ^(١)

وهكذا كانت الأسرة ، الزوج وهو سعيد والزوجة بنت أبي هريرة
فلعجب أن تكون العروس التي تربت في هذه البيئة المحبة لرسول
الله صلى الله عليه وسلم على نحو ما رأينا من سلوك أمها وتعلق
أبيها بالإسلام وعده إلى الاتصال بل إلى الانتساب إلى همة
الوصل بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من أمثال أبي

(١) إمام الثميني سعيد بن المسيب للإمام عبد الحليم محمود ص ٢٥٤
طدار الدعوة .

أبي هريرة وابن عمر وغيرهما من أصحاب النبي الكريم .

يروون عن ابنة سعيد أنها كانت طالبة فقيهة قادرة على التصرف
في المسائل التي يكل منها الفقهاء ومعجزون عنها .

يقول زوجها من ذلك (لقد كانت المسألة المعضلة تميمين
الفقهاء فأسألها عنها فأجد عندها منها علما ")

والطبع فإن ذلك ليس مستغربا من ابنة شيخ التابعين وأحد
أعلامهم الذين تأفخوا عن العبادات والمثل العليا التي عزمت على
الإسلام وكان لها يقول ويروي ثقة ، حجة ، فقيها ربيع الشأن
قيادة في الأصول والفروع لا يفصل أبدا بين القول والعمل ، وتفسر
النظرية بالتطبيق معتقد أن أرقى أنواع التكريم للمبدع هو انخراطه
في سلك الطاعة فيما (أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله
عز وجل ، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله وكفى بالمومن نصرة
من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله (١) .

ومن أقواله الكاشفة عن حبه لبولاه وخضوعه له وانقياده إليه

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ص ١٢٧ ج ٥ .

قوله :

" الناس كلهم تحت كف الله يعملون أعمالهم فإذا أراد الله عز وجل فضيحة عهد أخرجه من تحت كفه فبعت للناس موزنة " (١)

الذي نريد أن نقوله هنا إن حميد بن المسيب كان وليدًا لبنيته السليمة وابنها البار ولسانها المعبر عنها في كل ما يعملها الزهد والعمل نقد رتبة السنة .

فإن كل من داخل نفوسهم محبة السنة التوبة صلوات الله وسلامه على صاحبها كانوا أشلة يقتدى بها في الخلق الكريمة فواقع الأمر أن السنة قد رتب رجالاً تولوا قيادة الأمة لحفظهم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشهد التاريخ أنهم كانوا منارات تنير الظلمة للسالكين وترفع الحيرة عن قلوب الذين يجعلون ربهم هدفاً وظية ، وحميد بن المسيب من أولئك الذين وهبوا أنفسهم وأبدانهم لله ، وقد استعذبوا العذاب حتى أصبح لديهم عذيباً فلم يعد يمتنعهم عن عزيمتهم قوة باطنة أو عدة بظاهرة ، فهم يعتقدون أن صير الدنيا إلى زوال وإدام الأمر كذلك فإن موت النفس أحسن

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ص ١٢٧ ج ١

من موت ذهابه ، ثم تابهت الأيام مروراً بالصهور والسنين
 منتقلاً فيها من طور إلى طور كان فيها متعلماً ثم عالماً ومعلماً
 يبذل النصح للخاصة والعامة على حد سراء لا يخاف في الله
 لومة لائم ولا يقبل فيه عذر معتذر إن تعلق الأمر بأصول الإيمان ،
 فما كان في الفدائد إلا ثابتاً وما كان للموت إلا مرجحاً لأنهم
 يريد أن يلقى الله بلا ضغاء أو جلبة يقول رضى الله عنه
 موجه الحديث إلى أهله وذوى قرائته :

” إذا ماتت فلا تضربوا على قبري فسطاطاً ولا يحملوني
 على قطيفة حمراء ولا تبجوني بنار ولا تنودوا بي أحداً
 حسبي من يطلعني ربي ولا يتبعني زاجرهم هذا “

يقول صاحب عذرات الذهب إنه في سنة أربع وتسعين توفى
 الإمام السيد الجليل أبو محمد سميد بن السيب رحمه الله
 رحمة واسعة .



الفصل الخامس

ألفاظ الصوفية ومصطلحاتهم

* الفاظ الصوفية *

لصوفية لغة في التماثل وقد اشتهروا بالفاظ اصطلاحاً وليسوا
 لا بشئ يكسبها غيرهم بل ولد تفصيلاً للغة والقاعدة التي
 يبنى عليها هذا الفن بأسرها ، فذلك اجتذاب أرواح المعاصرين لشارع
 الله البعد في القرب ، قصد الاستدراك بالاقوال والأعمال والأموال
 على الاعتقالات ، قصداً ذاتياً لا على ما سلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم
 التصديع بالقوة والتفكر في المكنون من كونه ، ومعرفة العلوم في
 الانصراف وصاحبة القدر بالساعدة ، وبالمعروف ومجاهدة
 الموجودات الخمس ، الذات ، والمشي ، والنيال ، والعقل ، والشبهى
 حسبما فهم من الشرع وقبت حقائقه في الحفظ من الوحي ، وما
 أدرك شئ من العجز ، والعلم للنيال براحة الجسم .
 وسر هذه اللفاظ :-

الحال :- منزلة العبد في المين فيصوّر في الوقت حاله ووقته
 وقيل هو ما يتحول فيه العبد ، ويتغير ما يرد عليه قلبه ، فإذا امتعنا تأريخه .
 وتقدير آخر قيل له حال ، وقال بعضهم الحال لا يزول يا أزال لم يكن حالاً *
 المقام :- هو الذي به العبد في الدنيا في أنواع المعاملات والصروف
 المجاهدة ، حتى أقيم العبد شئ منها على المقام والكمال فهو مقامه ، حتى يتصل منه في نوع *
 الشئح :- كلام يترجم به الإنسان عن وجدانيه عن حدوده ، بقوله
 بالادعاء لا أن يكون صاحب محفوظاً *

* السر : ما خفي عن الخلق فلا يعلم به الدالقي ، و سر السر ما لا يحسن
 به السر ، و السر ثلاثه ، سر لهم ، و سر لال ، و سر الحقيقة ،
 سر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل ، و سر المال مغرور لال في المال عدم
 الله ، و سر الحقيقة ما وقعت به الإشارة +

* الوجع : إهلاك الفاشة +

* الدرب : ثلاثة أدباً شريعة و صواب تعلق بأحكام العلم بصحة عزيم
 الخدمة و المثلث : أدب الخدمة و صواب التشرع من العلل و البقر من
 الملائكة ، و الثالث : أدب الحق و صوابه الحق بالخدمة +

* الرياضة : اثنان . رياضة أدب و صواب المزج عن لمع النفس ، و رياضة القلب
 و صوابه المراد +

* المقلى : يشاء موال الصادقين بلا موال و لال و الرمال +

* التعلى : - اختيار الخلوة و الإعراض عن كل ما يشغل عن الحق +

* التجلى : - هو ما يكشف للقلوب من أنوار القلوب +

* الكاشفة : - أتم سم الشاهدة و هي ثلثة ، كاشفة بالعلم ، و هي
 تحقيق الوصاية بالفهم و كاشفة بالمال ، و هي تحقيق رؤية زيادة الحال ،
 و كاشفة بالترجيد ، و هي تحقيق صحة الإشارة +

* الشاهدة : - ثلاثه : شاهدة بالحق و هي رؤية الأشياء ، و شاهدة

الترجيد ، و شاهدة للمع و هي رؤية المع في الأشياء ، و شاهدة

المع و هي حقيقة اليقين بلا إرباب +

* اللوأخ : ما يلوح من الأسرار الظاهر الصافية عن السحر من حكمة

- الى حالة اتم منها ، والارتقاء من رتبة الى ما هو اعلى منها *
- * التلويح : تلويح العبد في احواله ، وقائل لماثقة ، علامة الحقيقة .
 يمنع التلويح بظهور الاستغناء ، وقال آخرون : علامة الحقيقة . التلويح
 لذنه يظهر فيه قدرة القادر ، يكسب منه العبد الغيرة *
- * الغيرة : غيرة في المحرم ، وغيرة على الحق ، وغيرة ضد المحرم ، فالغيرة
 في المحرم رؤية التواضع ، والناهي ، والغيرة على المحرم كتمان السرار ،
 والغيرة ضد المحرم منه على اوليائه *
- * الحرية : اقامة حقوق العبودية فتكون له عبداً وغنى شين حراً *
- * الدمية : اشارة رقيقة العنى تلوح في الفهم والرياسة في العبارة *
- * القبح : بملامة . فتوح العبارة في الظاهر : وذلك سبب اغلاص
 القصد وتوح الملازمة في الباطن : وهو سبب جذب الحق باعطائه ، وتوح
 الكاشفة وهو سبب العزة بالحق *
- * البطل : عبارة عن حال الرجاء *
- * القبض : عبارة عن حال الخوف *
- * الرشد : هو الذي صح له الرتلاد ، ودخل في جملة المتقين الى الاسترجاع بالرسم ،
 * الراد : وهو عارف الزمان لبق له لراية وقد وصل الى النهاية وغنى الأموال ولشأنه *
- * الوجد : حماسة القلب بصفاء ذم كان قد فقد *
- * الوجود : تمام وجود الواحدية وهو اسم الوجد بعينهم ، وسئل بعضهم
 عن الوجد والوجود فقال : الوجد ما نطلبه فوجد بكسده راينهاك
 والوجود ما تبهه سم الله اكوسم ، والوجد سم غير تكلن والوجود مع
 التكلن *

الفصل السادس

مصوص في الصوف

ولما انقضى بها تكميل يومين الذخيرة وزكرها . فإذ أتت العبد ما تروا
النفس ترك الدنيا ، الدتري أن العبد قد يكون فقيراً لدش له وهو
يشقى الدنيا ، ويهوى مجناها ، وينوى أن لو أمكنه منها ما يريد المتع بذلك
ونال لذته ، فهو عند الله تعالى من المرائيين على قسور صمت إلا إنه
أقل حساباً من نالها واستمتع بها .

فأول راجات الزهد ، هو الزهد في اتباع هوا النفس فإنها هانت على
المراء نفس لم يبال على أي شئ أسمى وأصبح إذا وافق محبة الله تعالى
عند ذلك على مخالفة نفسه ، ويصبر من محبوباً عن الشهوات والمذات
والرأى ، ومقاومة الدُّجباء والدُّخدان والدُّصحاب من أهل الغفلة إلى
من كان منهم غويّاً على ذلك الدُّحر الذي يريده العبد ، فإن آفة العبد
صعبة من يريد ما يريد ، ثم أخذ البلغة من الطعام والشراب واللباس
والعزل والنوم والكلام والنطق والاستمتاع ، وترك التفتى عن الدنيا والزور
من تيلر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم - قال : « الدنيا خضرة حلوة »

فتتوهم العبد بفناء صانع قصورها أحل مع توقع الموت ، والشوق إلى
الذخيرة والشوق إلى النزول في دار بقاها والعن في ذلك ، وذلك يزعج
الراحة من القلب بدوام الفكرة ومن العبد بدوام الخومة ، فهذا أول
درجات الزهد .

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى ، وكيع بن الجراح وأحمد بن
حنبل ، وغيرهم رحمهم الله : أن الزهد في الدنيا قصر الدمال ، وهذا

يدل على ما قالت الحكماء لئلا من قصر أمه لم ينعم ، وكانت الفيلة
منه بعيرة ، وقالت لثالثة من الناس : الزاهد في الدنيا هو الراجب
في الآخرة الزا قد جعلها نصب عينه كأن يرى عذابها وثوابها ، فهو
عازف عن الدنيا ، وهكذا يروى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لثالثة :
« كيف أصبحت يا حارثة ؟ » قال : مؤمناً حقاً يا رسول الله ، فقال النبي
- صلى الله عليه وسلم - : وما حقيقة إيمانك ؟ قال : عرفت نفسي عن الدنيا
فأطعت لذلك نهرى وأسهرت ليلي ، وكأني أنظر إلى عرش رب بارزاً ،
وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتناحون ، وإلى أهل النار يتعاهون ، فقال
النبي - صلى الله عليه وسلم - : مؤمن نور الله قلبه ، عرفنا قازم .
وقال بعض العلماء : الزهد خروج قيمة الأشياء من القلب والزهد
في الدنيا يق جراً ويخفى وكل عبد على قدر علمه بالله تعالى زهد ،
فمن نفى الرغبة في الدنيا من قلبه شيئاً بعد شيء حتى يرى غاية الزهد ،
ومن تواف عنه نفسه ولم يتألفها عند هواها لم يعرف عن الدنيا
ولم يشرف على الآخرة ، قال بعض العلماء : الزاهد في الدنيا حقاً
الذي لم الدنيا ولي يودها ، ولو فرح بها إذا أقبلت ، ولو حزن عليها إذا
أدبرت . قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : قال بعض البرلاء رحمه
الله تعالى : لو يكون زاهداً مستكمل الزهد أو يستوى عنده الحجارة والذهب
ولا يستوى الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله تعالى آية ،
فتحول الحجارة ذهباً ، فعندنا يخرج قيمة الأشياء من قلبه ، وصيغته

يقول : لم يستر الجارية والذهب عند أحد من الصحابة رضي
 الله عنهم بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . الدالبي بكر رضي الله عنه .
 قلت : فعلى أى معنى زهد الزاهدون ؟ قال : معان شتى فمنهم من زهد
 لفراغ القلب من الشغل ، وجعل همه كله في طاعة الله تعالى وذكره
 وخدمته فكناه الله عنه ذلك ، فهكذا روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - .
 أنه قال : « من جعل الله واحدا كفاه الله سائرهم » وقال عيسى
 عليه السلام : « بحق أقول لكم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة » وفي
 المال ما وكبير قالوا : ياروح الله ما داؤة ؟ قال : لا يعطى حقه ، قالوا :
 فإن أعطى حقه ؟ قال : يكون فيه فخر وخيل ، قالوا : فإن لم يكن فيه
 فخر ولا خيل ؟ قال : يشغل أصحابه عن ذكر الله ، ومنهم من
 زهد لحققة الظهر وسرعة المصراط إذا حبس أصحاب
 الدُّنْيا فقال للسؤال : فهكذا ، روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - . أنه قال :
 « عرض على أصحابي ففقدت عبد الرحمن بن عوف ، أو قال احتبس علي ،
 فقلت : ما بالراك علي ؟ قال : لم أزل أحاسب بعدل مكثرت مالي حتى
 جرى من العرق ما لو ردت عليه سبعون من الذل لم أمانه قد
 أكلت خنفسا لصردت منه رواه ٢ وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - . من
 غير لم يرد أنه قال : « الدُّنْيا لهم الدُّنْيا يوم القيامة (الدين) قال
 بالمال هكذا ، هكذا عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه
 بين عباد الله ، قال صلى الله عليه وسلم - . « ما من غنى ولو فقير الدُّنْيا يوم

القيامة أن الله كان جعل رزقه في الدنيا قوتاً ، وروى أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم - أنه قال وما يسرف أن في مثل أحد ذهباً أنفق في سبيل الله تعالى ثاق على الثالثة يكون من عندي شيئاً الدنيا را أوصيه لدين ، ومنهم من زهد رغبة في الجنة واشتياقاً إليها ضل عن الدنيا وعن لذاتها حق لما به الشوق إلى ثواب الله تعالى الذي لعمري إليه ووصفه له عز وجل ، وروى في الحديث « أن الله جل جلاله يقول : رأيت الزاهدون في الدنيا خاف أبصارهم الجنة » وقال بعض العلماء : لا تحسن قوافية الدجزة .

وأما درجات الذين زهدوا في الدنيا هم الذين رافقوا الله تعالى في محبة فكلوا عيشاً وقدر من الله عز وجل أكياساً محبين سمعوا الله جنتهم زعم الدنيا ، ووضع من قدرها ولم يرضها راء الدنيا ، استعجوا من الله عز وجل أن يراهم راكين إلى شيء زعمه ولم يرضه ، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً لم يتفقوا عليه من الله عز وجل جزاء ، وكان رافقوا الله في محبة محرماً ، والله لا يبيع أجر من أحسن عملاً ، فأهل الموافقة لله تعالى في الأمور هم أعقل العبيد وأزعمهم عند الله قدراً ، وهكذا روى عن ابن الدرداء رضي الله عنه أن قال - يا حبذا قوم الأكياس إذ لم يرضوا كيف غفروا سهر الحق وصياهم ، ولتقال ذرة من صاحب تقوى يقيت أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المفتريين وفي هذا بلوغ لمن عقل عن الله عز وجل وبالله التوفيق .

وروى عن عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - أنه نظر إلى شاب مصفر فقال له ما هذا المصفر يا غلام ؟ قال : استقام وأمرض يا أمير المؤمنين . قال : ثم صدقني قال : استقام وأمرض ، قال لتخبرني ، قال : يا أمير المؤمنين عرفت نفسي من الدنيا فاستوى عندي جحر حار ذهبل وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون وأهل النار في النار يتعارون . فقال عمر : أتق الله هذا يا غلام ؟ قال : اتق الله ليخرج عليكَ العلم أخيراً ، إنه لما قصر بنا عن علم ما علمنا تركنا العمل بما علمنا ولم نعلمنا ببعض ما علمنا المورثنا علماً لم نعوم له أبداً ننسا . وروى عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه استسقى فأفأت بإثاء فلما قرب به إلى فيه وذاقه غناه ثم بكى فقبل له في ذلك ، فقال رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرائك تدفع بيدك ولا أرى شيئاً فقال : نعم ، تلك الدنيا فشتت لي في زمينتها قتلت : البلى عني ، فقالت : إن تبعوني فلن يتبعوني من بعدك . قل أبو بكر - رضي الله عنه - فأخاف أن تكون قد أدركتني قال : وكان في الرياء الذي شرب أبو بكر - رضي الله عنه - . رضي الله عنه - منه ماء غسل ، فبكى اشفاقاً من ذلك .

ويروى في بعض الحديث أن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يأكلوا تليذاً ولم يلبسوا ثياباً وف رولية : أن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - اتعافوا الدنيا من بعد حين ففتح عليهم من حللها أنهم يكوا من ذلك واشتقوا وقالوا : نخاف أن تكون مجلت لنا حسنا تناء فليق الله عبد وليستصفت من نفسه وليلزم خيال من حصى وليتخوف بشتتير ويسأل الله في آتالته .

* الزهد الشاف *

* من كتاب قوت القلوب *

للشيخ محمد بن علي ، اب لحبيب المكي ، ٢١٠ هـ

* فصل آخر *

أن الرغبة في الهوى حقيقة الدنيا وإن كان العبد زاهداً في المال من قبل
أنه يعطى الزهد في شيء دون شيء ، كما يزهد في النساء ، ولا يزهد في المال ولا يعطى
الزهد في الدنيا وقد يعطى الزهد في المال ، ولا يعطى الزهد في نفسه
لغلبة الهوى فإذا أعطى الزهد في الهوى كأنما ما كان فقد أعطى حقيقة الزهد
في الدنيا وهذا هو الزهد في النفس ، لأن النفس عين الرغبة والهوى روح
النفس فاعرف هذا ، وكان يونس بن مسروق الجليلي يقول : " ستة " ^١
الزهدارة في الدنيا بتحريم الحلال ، وإضاعة المال ، ولكن الزهدارة في
الدنيا أن تكون بما يبيح الله أو تترك ما يملك بيدك ، وأن يكون حالك في
المصيبة وحالك إذا لم تصيب بها سواد ، وأن يكون زاهدك وحار حرك في
الحق سواد ، وقال سلام بن أبي مطيع رحمه الله : الزهد على ثلاثة أوجه :
ولهذا أن تحلص العمل لله عوجلز والقول فلا يرد شيئاً منه الدنيا ،
والثاني - ترك ما لا يصلح والعمل بما يصلح ، والثالث - الحلال أن يزهد
فيه وهو الخلق ، وكان أفاضل هذا العلم إبراهيم بن أحمد رحمه الله يقول :
الزهد ثلاثة أصناف : زهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سارية ، والزهد
الفرض في الحرام كماله ، والفضل في الحلال ، والسارية في الشهوات .

ووال في الأصل ليس

واما ايوب السخيتاني رحمه الله فكان يقول : الزهد أن يعجز أحدكم فـ
 خزنه فإن كان يعود له تعالى رضا والد خريج وإن يخرج فإن كان خروجه
 له تعالى رضا والد رجع ، فإن رجوعه لله رضا والد حبسه فإن كان حبسه
 لله تعالى رضا والد رضى به ، ويتكلم فإن كان كلامه لله تعالى رضا والد
 سكته فإن أخرجه لله رضا والد حبسه ويحبسه فإن كان حبسه لله تعالى
 رضا والد رضى به ويتكلم فإن كان كلامه لله تعالى رضا والد سكته فإن كان
 سكوته لله تعالى رضا والد يتكلم فقليل هذا صعب فقال : هذا الطريق إلى
 الله هو جلجلز ، والد فلا تلعبوا فقد ذهب إلى أن الزهد هو المراقبة والمراقبة
 هي الدخلاء .

ويُسئل حاتم الأصم صاحب شقيقه المبنى رحمه الله تعالى - عن الزهد
 فقال : أوله الثقة وأوسطه الصبر وآخره الدخلاء ، فهذا كان الدخلاء
 عندهم هو آخر الزهد تكليف يقع بعد آخر الزهد قبل أوله ؟ أم كيف
 يجاوز الدخلاء إلى مقامات العزّة ؟ فقد صار آخر الزهد عندهم أول الموفّة .
 ونظمت لحافّة إلى أن الزهد في الدنيا خريضة على المؤمنين الدافعية
 إلى الدخلاء عن الزهد " عندهم فأوجبوه من حيث أوجبوا على المؤمنين
 إلى الدخلاء ، وما إلى هذا القول بغير الرهيم بغير الرهيم ، وقد روي
 عنه أنه لما أحمده بغيره من ربه الله ، قيل له أحمد : بأى شيء
 ذكر القوم وصاروا أئمة ؟ فقال : بالصديق فقالوا : وما الصديق ؟

قال: المخلص: قبل وما المخلص؟ قال هو الزهد قبل: ولله
ما بأعجب الله: فألقى ثم قال سلوا الزهاد، سلوا بشرير الحارث: *
وقال قوم: الزهد في الدنيا لب الخلال وأنه واجب ففترض في
مثل زماننا لا نختار له الأشياء وغلبة المشبهات قالوا: فقد تفسير
فرض الزهد، وهذا إبراهيم بن آدم ووصيه بسم الورد وسليمان
النواص وجعلته من أهل الشام،
وعد كان سهل يقول، أزهى الناس في الدنيا أضعافهم كلها، وقال:
أقصى حقاً في الوجود أدنى حقاً من الزهد.

وقد روي عن يوسف بن أسباط وكعب بن جهم الله تعالى: لو
تهد عبدي في زماننا حتى يكوم كفي الورد أو ما سيناها زاهراً لأن الزهد
غنى إنما هو في المال المحصر ولا تعرف المال المحصر اليوم، وكذلك كاسر
الحسد البصير رحمه الله أما الرزقة يقول: لا شيء أفضل من رزق الله الدنيا.
قال الفضل بن شاذان، قلت للحن، يا أبا سعيد، جلون يملك أحدكم الدنيا
بجلها فأصابعه فقول لم رحمه قسم نيل نفسه، ورجل رفض الدنيا، قال أجمعها
إلى الذي رفض الدنيا، قلت: يا أبا سعيد هذا المثل بجلها فقول لم رحمه قسم نيل نفسه؟
قال أجمعها إلى التي تجانب الدنيا وإنما مشرف للحن الذي رفض الدنيا
لأن مقام الزهد جميع التوكل والرضا والتسليم إلى الخير الذي جاء: «الزهد أن
تكون بما في يد الله أو نعمه منك بما في يدك»، فهذا هو التوكل ثم قال: «وإن يكوم
بشوايب العيبه أخرج منك لولا أن يثبت لك»، وهذا هو الرضا، ثم العزفة

والحبة بعد الزهر واخذون عليه ، فأى حقا أعلى من حقا جمع هذه الأربعة
 هى غاية الطالبيم ، ولعمري أنه كلفه الله روكا عمر ابن عباس رضي الله عنه .
 حديث فيه شدة قال : يؤتى بالذبا يوم القيامة صورته محجوزة لها وزن قدر
 أنياب باريت مشوية حلقها فتشرف على الملافة فيقال : اتعرفون هذه ؟
 فيقولون : نفوذ بالله تعالى سم معرفة هذه ، فيقال : هذه الدنيا التي
 تناخرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام وبها تقاسمتم وتباغضتم واعتزتم ثم
 تغدق في جهنم فتنادى : أئى رب : أين التباى وأشياعى به فيقول الله :
 الحقوا بل أشياعها وأشياعها .

وقد روى عمر بن رسول الله صلى الله عليه وسلم . حديثاً أشد من هذا ، حدثنا ابن
 عبد الواعدين زهير بن عبد الحميد بن أنس رضي الله عنه . قال رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم : ليبيحن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كمال ثلاثة فيؤمر
 بهم إلى النار قالوا : يا رسول الله مصلين به قال : نعم كانوا يصلون
 ربه يومئذ ويأخذون هبة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه .
 وكذلك كان الذين هم أسد الناس رجسهم الله يقول : إنا الزهد استغفار قيمة
 الدنيا القلب وأن لا يكون لشئ عابث في القلب وزن ، فإذا استغفرت قيم الأشياء
 واستغفرت في القلب فهو الزهد .

فأما أبو يزيد السلمي رحمه الله فإنه كان يقول : ليس الزاهد سر له بل
 شيئاً إذا الزاهد سر له يملكه شئ . وقال علم شئ في حنا : الزاهد سر لا يتعلم
 الأشياء ولم يكسر إليها ، وكما هو يقول : الزاهد قوته ما وجد ، وقوته ما صبر

وبسته ما آواه وحاله وقت .

وقال بعض العارفين : الزهد انما هو ترك التبرير والاعتبار ، والمضاهاة والتسلية ، لا اعتبار شدة كان أو رخاؤه ، وهذا هو لغير النواص والمثوري وذو النور ورحمهم الله تعالى .

وقال ابو يزيد رحمه الله مرة : انما الزهد من لا يميل شيئا منكم شيئا وقال : حقيقة الزهد لا يكون الا عند ظهور القدرة ، والعاجز لا يصح زهدا هو ان يعطيك كثر ويلجبه على اليأس ويقدر على الأشياء بالظهور الكوثر فيزهد في ذلك حياء من الله تعالى ويترك حباله ، وطير يستفيد باله من أربعة وعشرين مقاماً من أطوار القدوة ، وقال لؤي حوصي عبد الحميد : في أي شيء يتكلم ؟ قلت في الزهد . قال : في أي شيء قلت ؟ قلت في الدنيا . قال فنفض يده وقال : فثبتت انه يتكلم في الزهد في شيء ، الدنيا لا شيء . تتردد فيه .

وذهب الى هذا الغنى سهل وغيره وقال : سبعة عشر مقاماً في المعرفة اذاها المشي على الماء وفي الحواجر وظهور كنوز الدرهم وهذا كله من زخرف الدنيا . وقد حكى لنا سفي هذا الشيخ الجليل قال : اجمع أربعة من الأدب الى في جامع المنور ليلة العيد فلما أسعروا قال أحدهم أما أنا فقد نويت أن اعمل العيد في بيت المقدس . وقال الآخر أنا أنا فقد نويت أن اعمل العيد بطن بسوسه ، وقال الثالث أنا أنا فقد نويت أن اعمل العيد بمكة ، وسكت الرابع وكان عرفهم فقبل له . أنت أي شيء نويت ؟ فقال أنا أنا فقد نويت اليوم ترك الشهوات

لا أصل للوفى هذا العبد الذى يبت فيه ، قالوا : أنت أعلمنا بقصده عند
 فصار عنده هو الذى لا يذكرنا . أنشأ أن هذه الأيات هى سم الشهوات اذ ليست
 حاجات شقاوة والشهوة سم الدنيا للنظر سم الصوى وأيضا فيها تربية واختيار وعند
 الزهاد العارفين والجبيس أن هذا مكر وخداع يتلوس به ويقتلحون ليرى
 كيف يعملون اذ يتلوا كل عصر على قدر مرتبته وحاله فيلزم الزهد فيه ؟
 ويقال : هى فى المقام السابع عشر سم العزة نعمه ملك به الطريق رآها
 فيه وفوقها نيت وسبعون مقاماً أفضل من ذلك .
 وقد سئل الجيّد عم الزهد فقال : حنين ، طاموس ، ألم ، فالظاهر فيه صفة ماف
 الدبرى سم الألماء وتلك لمحب المفقود ، والباطس نوال الرغبة سم القلب
 ووجود العزوف والضراف عم ذكر ذلك فاذا تحققت ذلك رزقه الله
 تلك الوضرات على الدخوق والنظر اليها بقلبه فيستزيد من العمل بتقصير
 الدمل وقريب الدمل لأن الأسباب عم قلبه خصلعة والقلب منفرد بالآخرة
 وحقيقة الزهد قد خلصت إلى قلبه فاستلزم الذكر المخلص لمريد سبحانه
 وتعالى ، فالزهد سم حقيقة الإيمان والشاهدة للآخرة تكون بعد الزهد واستقراء
 الأشياء فيكون مدخل كنجودها بعد الشاهدة لاستقراء القلب ومعه يستوى المدح
 والزم استقواء النفس ، وذهاب رؤية الخلق ، فعندها خلص إلى خلاص إلى
 قلبه لصفاة الزهد لاستقواء النفس .
 دليل ذلك الخبر الذى رواه أنه النبى . صلوات الله عليه وسلم . قال لرجل : هل استويت ؟
 قال : وكيف استويت ؟ قال : يستوى عندك المدح والذم .

وقول حارثه لما سأله عن حقيقة الإيمان ، عزفت نفسى عن الدنيا فابتدأ بالزهد
ثم ذكر الاستغفار والجوارح عبيد ، ثم ذكر المشاهدة بعد ذلك الحديث .
وهذه كلها مقامات الزهد وكل من جعل الدنيا شيئاً يبلغ عليه وعلو مشاهدته
جعل الزهد ضوفاً ، وقد نزع أهل المعرفة الدنيا من القلب بمن تقاين فجعل
لها زهدية فقال : اذا نزعوا الدنيا من القلب لم يبق القلب إلا الدنيا وأحب
الأخرة وكل لها ، فإذا لم يبق إلا الدنيا في سويداء القلب وأبشع أبيض الدنيا
فلم يبق إلا الدنيا ولم يبق لها .

ومما كثره أبو سليمان يقول : من شغل بنفسه شغل عن الناس ، ومن شغل
بالعالمين ومن شغل بربه سبحانه وتعالى شغل عن نفسه فكذا قال العارفين
لخصم القاسم دليل من السنة ، ان النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل :
أبى الناس خير . فقال : من يشأ الدنيا ويحب الآخرة ، فارتفع لشئان
للدنيا والآخره ضده من حب الآخرة ، والمقام الدليل دليل : من جعل
المحمود لها واحداً كفاه الله تعالى أمر آخرته ودنياه . والهم الواحد
يوجد واحد قريب واحد هو وصف عبد متوجه لواءه فقال له الواحد
وقد صلب له خلقاً من خلقه فهو الواحد بوضوئية صفته وعبد متوجه يوجه
بغير خلقه ، فهو متفرد لهم مجتمع القلب ، وانفراد لهم يكون بعد محو الهوى
وحوى بعد امتناع القلب للتقوى واجتماع القلب يكون مع لمحيب النفس
ولما نزل بالبيان أو نزل مراراً تركية والرضا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :-
لمحيب النفس من النعيم .

وقال لله تعالى : قد افزع من زكاه . وقال تعالى : راضية برضية ، فيكون
مقومه بالروح ، مخلقة بخلقهم باليمان ، مؤلفة للقلب بمشاهدة ليعقيم .
وقال وهب بن منبه : وجبت فيما أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام : من
أحب الدنيا أبغضه الله تعالى ، ومن أبغض الله أبغضه الله تعالى ، ومن أكرم الدنيا
أهان الله ومن أهان الله أكرمه الله تعالى .

وأما علماء الظاهر فقالوا : الزهد في الدنيا هو موافقة العلم والقيام بأحكام
الشرع ، وأخذ الشيء بمسارعه ووضع في حقه ، وما خالف العلم فهو وصفي كله
فذكروا خروج الزهد عن المسارعة ، ولم يعرفوا رفاقه وبراهينه .

وقد روي عن سفيان بن عيينة والثوري عن هذا أنها سئل : أيكون الرجل
زاهدا وله مال ؟ قال : نعم ، إن كان إذا ابتلى فصر وإذا أنعم عليه شكر .

قال ابن أبي الخوارق : يا أبا محمد يعني ابن عيينة ، قد أنعم عليه فشكر
وابتلى فصر ، ومن النعمة كيف يكون زاهدا ؟ فصر يعني بغيره وقال : استكفتم

تقنع النعمان من الشكر ولا البطوى عن الصبر فذكر الزاهد ، وأخبرها الزهري

فقال كذا لك ، وقد فضل زاهد أبو سليمان فقال ابن أبي الخوارق قلت له : إن كان

زاهدا لم يرحم الله تعالى زاهدا ؟ قال : نعم ، قلت : بلغني أنه ورث عن أبيه

عشرين دينارا ، فأنتقم في عشرين سنة ، فكيف يكون زاهدا ؟ وهو يصط الوائس ؟

فقال : أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ، ولعمري أنا روي عن رسول الله

ﷺ : نفا بالمال الصالح الرء الصالح ، والمال الصالح هو المال

والو الطالح المفق مال بالليل والنهار سررا ، وعلانية في سبيل الله ابتغاء

حرماته كما وصفه الله تعالى وحده .

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :- « أن الله تعالى يعطي
 الدنيا من يحبها ، ولا يعطي الدين الا من يحب » ، والذي يحبه الله
 تعالى من اهل الدنيا لا يخالف حبيبه الى هواه ، ولا يؤثر نفسه من
 حبه مولاه تبارك وتعالى . إذ قد تولاه فيما أعطاه .
 وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « العالم الشاكر ينزله
 الصائم الصابر » ، والعالم الشاكر هو الذي يستعير بجهته على خدمة
 مولاه ، ويعبده شكراً لا تولد .
 وقد قالوا في الزهد : « صنفان جامعان لدحوال القلوب :
 قال مضاعفهم عيسى : قلت للصياح الموصلي : يا أبا حمزة ، الى أي شيء
 أفضى بهم الزهد ؟ الى الدُّنس بالله تعالى .
 وقال عثمان بن عاصم : « لأن يقال : الودع يبلغ بالعبد الى الزهد ،
 والزهد يبلغ به حب الله تعالى .
 فهذا ان الخالاق غاية الى لبيح الحب للليل ، والدُّنس بالطين
 فسر لم يتحقق بالزهد لم يبلغ حقا الحب ولم يدرك حال الدُّنس ، ثم ان
 سرائر الغيوب في حقا الحب واللة ، وفي حال الدُّنس والقرينة » .

* النص الثالث *

* من كتبها الفتوحات المكية *

* شيخ محي الدين بن عوف (١٢٨١هـ) *

* الباب الثالث والشعر في الزهد *

الزهد قول محلل ومحلل وحلل فانه زهد فزهدك أن زهد
 والتول شئ لا وجود لعينه وله لسان في الشريعة محمد
 في الزهد تعظيم الأمور وماله عند الحقير قيمة لا تجد
 الزهد لا يكون في الحاصل في الملك الطلب حاصل في الملك ، فان زهد
 في الطلب زهد لأن أصحابنا اختلفوا في الفقير الذي لا يطلب له ، هل يعطى له
 اسم الزاهد ؟ أو لا تسم له في هذا المقام ؟ فذهبنا أن الفقير متى كان من
 الرغبة في الدنيا ، والتعل في تحصيلها ، ولو لم يحصل فتركه لذل القيل والطلب
 والرغبة عنه يسمى زهداً بمرثلة ، وذلك الطلب في ملكه حاصل فهذا
 حديثنا بعد ذكرنا ، ولقد فاضت في هذه المسألة جماعة من أهل الله
 لا نذكرهم قال بقولنا ، وسبب ذلك أن صاحب الزوق لا يريد أن يرى لتركه
 طلب الدنيا والرغبة فيها أكثر إليها في قلبه ، فلو لم يكن ذلك مروجاً وعند
 الله واعتباراً حاصح أن يكون له أكثر في التجلي الربوي لصاحب هذا الحال ،
 وهو الصريح ، فنفق أن الزهد الذي ذكرناه حقاً وحالاً ، فمقامه الربوي
 حلال ، وهو زهد في كل اسم الهوى يحول بينه وبين عبودية ، والربانية
 مقيد بصفته الترتيب عن حكم هذا الاسم عليه ، والمحافظ هو

مصرفه على ما يستحقه أئني هذا الزهرود فيه ، فأما في اللذ من كونه
مستأ فالزهر في الذكون وهو الجباب الذبعد الأقصى ، وأما في
البروت من كونه مؤخراً فالزهر في نفسه وهو الجباب الذبعد الأقرب ،
وأما في اللذ من كونه محسناً فالزهر في كل ماسو الله ، وهذا
يرتفع الجباب عند الطائفة . قال أبو يزيد الذكبر : ليس الزهر عند
بمقام أن كنت زاهداً ثمرة أيام أول يوم نهضت في الدنيا ، واليوم الثاني
نهضت في الآخرة ، واليوم الثالث نهضت في كل ماسو الله فناداني الجوع ،
ماذا تريد ؟ فقلت : أريد أن لا أريد ، لذني أنا المراد وأنت المرير ،
وقد اتقده على هذا القول بعصر أهل الطلوع . وجعل مقام أبي يزيد في ذلك .
وقد تكلمنا على تصد بهذا القول وبيننا ، ونسار هذا القول ، أئني قول المقرص
عليه في غير هذا الوضع ، وهو ثم القام المستعجبة للبعد عالم يتكشف
له ، فإذا اكتشف الغطاء عن عين قلبه لم يزهر ، ولا ينبغي له أن الزهر ، فإن
العب لا يزهر فيما خلق له ^{١١} ولا يكون زاهداً الزهر يزهر فيما
خلق من أجله ^{١٢} وهذا الذي كونه ، فالزهر من القائل به جهل في عين
الحقيقة ، لأنه ما ليس له لا تصف بالزهر فيه وما هو في لا يمكنني
الافتكاك عنه فأين الزهر ، ونقل مباحية هذا الكم هذا صور الزهر الذي
يستحق هذا الاسم ولنا في هذا العام الزهرى نظم

١ - ما خلق له صور العبارة « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون »

٢ - ما خلق لزوجله : « أكون وما فيه » هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً

* العيب منك رأيت لا زرى * فالزهدي مثل عوارق الوتر *
 * وسراج نفسك نوره متعلق * بجميع حافى الكون من أحر *
 * فالحق السراج يزول كل تعلق * فالزهديك كعليلة القدر *
 * هي من غروب الشمس حتى تتهوى * بالملك فبك كحطع الفجر *
 يقول : لو رأيت الحق لم تزدنيان الله ما زهد في الخلق وحاشم تخلق إلا
 بالله فيمن في الزهد النظر إلى هذا المعنى فإنه واقع جداً ^{١١}
 * الزهد ترك وترك التارك محطوم * بانفسك ما في الكف مقبوض *
 * الأرض قبضته صراخى نأين التارك * فهو حال فيك مفروض *
 * لا ينعم الحق بالتعاقب أنت لها * وقد زهدت فهذا اللفظ تعريض *
 * فما الزهد ليس له في العلم مرتبة * وتركه عند الأول محل الجمع مفروض *
 اعلم أن ترك التارك احسانك ، والمزهد ترك ، وترك الزهد ترك التارك ، فهو
 بين رجوعك إلى ما زهدت فيه ، لأن العلم الحق ترك اليه والحال يطلبه قتاله
 حقيقة في باقى الاسم لكن له حكم ما في الظاهر فيصح هذا التقدير ،
 وبقى صريح الإحسان الذى ترك المزهد عن رغبة في السوء ؟ أو لا عن
 رغبة ؟ فاختلقت أحوال الناس فيه ، فمن أصلك لا عن رغبة فهو
 نأى صراخى على اتصال حقوق الغير حتى يؤدى إلى أرباب إرف
 الأرفاق المقررة المقررة ،

وقد يكون عن كشف وعلم صحيح بأعيان أصحابها ، وقد يكون ، غير أن
 لم يتناولها شيئاً في حق نفسه ، إذ كان بهذه الثابتة ، ومرة أمك عن
 منية في المسك ، وهم رجلان الواحد راجع عن مقام الزهد بل يشك
 لوض قام به في نفسه ، فهذا ليس بشئ ، والرجل الآخر وهم الأتقياء لكل
 سر الذلِيلَاء ، فأحكوا بالطلع عرفان النج لهم أمراً أعشقته بماف الاصانع
 سر العزة والتجلى بالكمال لو من بخل وضعف يقين ، أرسل الله على
 اليون رجل جراد من ذهب فسقط عليه فأخذ يجمع في ثوبه ، فأوحى
 إليه : ألم أكن أغنيك عن هذا ؟ فقال : لا غنى لي عن خيرك .

فأظلم ما علمت معرفته ، وما زهد من زهد : إذ لطيف الزكش ،
 فزهد في الأقل ، قل متاع الدنيا قليل ، فأين الزهد ؟ ، فأتوا الدنيا
 الذو حراً أن من زهم في الأخرة ، فهذا من الطمع والرغبة فيما يتجلى فيه أنه
 زهد ، وهذا هو متاع ترك الزهد ، أما حاله فالزهد في الدنيا ، ولهذا الرشيد .

* * * * *

* الفصل الرابع *

* من كتاب رسائل ابن سبئين *

* الشيخ محمد بن الحسن بن سبئين (٢٩٦٦ هـ) *

* فضيلة الذكر في حق الزهد *

الزهد المعروف هو التروك المعتدل لما لا يجب ، أو لا يشغل ، أو يضر نوعه وإن لم يضر شخصه ، وهو الذي يخلص على الوجه من صفة نفسه ، ويسود الزاهد بسببه ، وإذا انقلب إليه الخوف والعلم استقام الأمر ، وهو ينظر إلى التوبة في البداية فيقتوى الحلب ، ويتفكر في السلوك ، ويلتزم بدريائس بتحقيقه فيه ، ويتفرغ إلى القاية ويتردد في أمر لأنه قد يظهر له في النهاية أن لا تنال إلا بطلب ما يرسب ما يكون حبراً في أشرع للذين أن يلجأ الكمال في طلبه الشرط ببعض ما خرج عنه أن يعود إليه كما يجب ويلجأ المقام بالشوق ، والمهمة إن علت قد تغلب الأول فإن جهلت فتقتلج بالذول ، وتعمل الثاني ، هذا هو زهد البعض ، والزهد غير مراد ، وأردت بهذا الكلام التوسط *

وأيضاً الزهد هو فقد ما إليه يحتاج بأداة . وأيضا الزهد هو الفقر ، غير أن الفقر العرفي أجل منه ، وهو المذكور في الفقرية ، والزهد العرفي أجل من الفقر وأيضا الزهد - إن كان على هذا الحال والحل - كبير بمعنى أنه هو مجسب خير فائدة تراه في الأمر الموصول من الدنيا ، وأخرى تبصر في المحققين ، وزمته عليه مملوكة بالحكم وبالذمور الشرعية المألقة الكليات العترة في الدنيا والآخرة محمد بالجدة ، وقد يجمع منه الزهد النشوي ، والزهد المحسوب ، وهو إما في النفس وهو زهدها

في عالمها ومنعها وحيتها وبما تستلزم في هذا جميع أخلاقها ، وأما في
الدور التي فوقها ، وهي إذا انقربت بكاملها فترصد في الدور المتغيرة المعول
عليها عند الجميع - مثال ذلك : يرصد في العلم بمعنى لا يفتلج به في وقت ما ،
لأنه يطلب العرفه ، ويرصد في المعرفة لأنه يشهد العرفه ، ويرصد في
التفريع إلى الله صر النار من القرب سم الفاعل الجبل عليه وهم الفصل ،
ويرصد في التأهب لنعيم الآخرة لأن اللذة القائمة بالموجود استغنى
بها من كل لذة ، ويرصد في ذلك لأن القصد الملقى له ، ويرصد في ذلك
لأن الهيبة هيبة من الكفة ، ويرصد في ذلك لأن الحد حصه ، ويرصد
في ذلك ، لأنه مدلول الرضا ، ويرصد في ذلك لأن الجبل ذلك ، وفي ذلك أنه
ذلك ، وكذلك في وقت وجود ذلك والزهد الذي في الجسم صريخهم بسبب
وجوه المتروك - مثال ذلك ، الزهد في التكسب الذي لا يلق به إلا بزم
الغير المضمحل وصوح هذا الحسن يستجلب شهواته من الصور الطيبة ، وجاء
يجلب العسر ويكون خليفة مدك الأرض وله نفس تطلب اللذات الطيبة
ويجرب في الطلب قوة استدراك وسلاسة أعضاء وقوى وملكة خصال يعجز
عن تفريحه بالمعد والتعليم ، وما أشبه ذلك نسبة بينه وبين من هو دونه
مع كونه أدنىة تلحقه وجعلت تقية . فاعتبر ذلك وقس به وأشج على
حنوالة ، الوأمر من الوعد . والوجود قد يلقى له القامات بمعنى ما ،
وبالوجه التي يقال انتقل ورجل ملحد الذنوب يظهر العهود إلى غير ذلك
لأنه لا يعود إلى العرفه المدرك فيهملة وهذا النوع من المزهد
إلى خاتمة .

وأما الزهر الجليل فهو الذي يكون به الزاهر غريباً في الدخوة ولديته مرد
 إلى الأسباب المطلقة يكون معها تاريخاً على الإلهام غير الله على الإلهام
 وهو بالجملة زهر لكن يكتب كماله ، فإنه كان زاهراً على الإلهام حتى في الذي يسرى
 له من الله كان مطلقاً ولا خيراً فيه ، الذي كان خيراً من الله ، أعني أنه
 المقصود العين التي لا يبعث عنها طلب لها والذم جبهتها بحسب ما يقال .
 فأتيت ما يضرك ويقول : ومن حراً الموحدة - وهذا يعني سلب وجع
 على مجموعة ، مجمع وعوض بغيره ويجزى بذلك .

فإذا كان الذم على ما ذكرناه فليكن أن قسم أن الذكر هو الأصل في
 ذلك كله . وما حملني على ذكر الزهر وتقسيم ما ظهر في وجه بحسب هذا
 التقيد ، وكوفي أخذت فيه زيادة ما أريدت بذلك التبيين على خصاصة
 الدنيا وكونها مملكة وهي العلة القريبة والفاعلة بالجملة ومردفهم
 الكريمة - فانههم ! .

ونعود إلى فضل الذكر فنقول : ما من نوع من هذه الأنواع إلا وقد
 يجمع لك في كلمة واحدة وهي جميع : من ذكر الله ولم يفقه عن غيره
 ولأننا نسب به ولا احتج به على ما سواه فلا خيراً فيه ، ويكاد أن لا يمكن
 منه الخير ولا يبع فيه وجوده ، وأعوذ بالله منه .

وأيضاً الزاهر مع أجل الله هو الذي يزهر في أفعاله ، ولا يزهر في الله
 ولا صفاته . وذكر الله هو الذي يشبه على جماله ، وهو الذي يشبه القفا .
 وإذا زهر الزاهر وهو يذكر ربه ترك ما يجب تركه وتصور ما يجب
 من أجل الله . والله هو الكفيل به لأنه هو الذي يقول : أنا

« أنا جالس من ذكرفي » ، والمعلم العادل الرشيد العلم الرباني
 إذا تصرف عبداً معاً أثنى بحضوره . وهو يذكر بمعنى أنه يشاوره ويطلب
 منه أن يختار له الذوات . وهذا هو الذكر النافع الذي يعقل فيه
 هذا كله ، وما يمكن مولده النكور أن يتحرك ، يتحرك ما يجب أن يتحرك
 ويعقل بالذكيك أن يتصل به ، بل يجري في أمور وأفعاله نحو
 الصواب فذكر الله هو العلم الأكبر ، وهو شيخ الشيخ . وهو يعلم
 الملك ، ويعقل في حركة الفلك ، ويعي بعقل النبي ، ويعلم ويعقل
 ويحكم ، وكذلك أتباعه إذا تم على سواره ، أثنى الذكر الكبير .
 وهذه مقامات ذكرت فضيلة الذكر كما يظهر لك مجردة في كل طور
 ونوع من أنواع شروط الكمال . ولا ذكرته قبل أنه باصيته في كل
 المقامات حيث هو جزء حاصيتم - أحسبت إلى ذكره هنا من
 حيث هو عظم ومقوم . وبالجملة هو القائل للغير والشرف ، الكمال من
 حيث تأثيره في النفس الغافلة ويكونه يذكر ، بالوقوف مع واجب
 حلوله ، وما أشبه ذلك وهو الارتفاع من حيث أنه الموضوع الأول
 بهذا النوع يقال بأشهر أن بانه : الكتاب والسنة ، والجمع يرجع
 إلى معناه الموجب ، وأما عينه في هذا المقام وتعلق اصطلاح به وخبرته
 بذلك . والملاحظة في اصطلاح من شمس أهل القصور ، وهو الموصوف ،
 فانه المعنى المحمور ، والشكل الظاهر في الضمائر وفي التقنيات ، وهو
 القسم لما تقدم ، ١١

١١ انظر رسائل به سبعين رسالة التوحيد أو الفؤاد ص ١١١

الصيغة التأليف والوجه طبعه ١١١١

Biblioteca Alexandrina



0450403

مطبعة الحرم

• طباعة أوفست • مطبوعات تجارية وفنية • تجليد
لعام ٤٢ شارع تشينغ خفاجة - راغب باشا